النكبة الفلسطينية
فى الذاكرة الإسرائيلية
(احتلال الوعى)

دراسة فى الشعر العبرى المعاصر

دكتور

عمرو عبدالعلى علام

دار العلوم
للنشر والتوزيع

النكبة الفلسطينية في الذاكرة الإسرائيلية
المؤلف: عمرو عبد العلي علام
الطبعة الأولى: يناير ٢٠١٨
التنسيق الداخلي: رفعت حسن سيد
دار العلوم للنشر والتوزيع
ص. ب: ٢٠٢ محمد فريد ١١٥١٨
هاتف: ٠١١٤٤٧٦٤٠٠٠ ـ ٠١٠٦١١٦٠٩٨٨
الموقع الإلكتروني: www.dareloloom.com
البريد الإلكتروني: daralaloom@hotmail.com
Facebook.com/dareloloom
Twiter: @dareloloom
جميع الحقوق محفوظة...

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي دار العلوم للنشر والتوزيع

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

علام/ عمرو عبد العلي علام
النكبة الفلسطينية في الذاكرة الإسرائيلية/ تأليف: عمرو عبد العلي علام – القاهرة: دار العلوم للنشر، ٢٠١٨
١٦٠ص، ١سم
تدمك: ٦ ٥٣٢ ٣٨٠ ٩٧٧ ٩٧٨
١. عبري. أ) العنوان ٣٣١. ١٣٧
رقم الإيداع: ١٣٤٦٣ التاريخ: ٤/ ٦/ ٢٠١٧

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

مقدمة ٧

الفصل الأول: القرى والمدن الفلسطينية بين "التفريغ" و"التغييب" ٢٥

الفصل الثاني: الممارسات والجرائم الأخلاقية للجنود الإسرائيليين ٧٧

الفصل الثالث: الذاكرة الإسرائيلية والجغرافيا الفلسطينية (احتلال الوعي) ١١٧

نتائج الدراسة ١٤٥

الهوامش ١٤٩

مقدمة

يدور الزمان وتتوالى الأحداث التاريخية؛ وتبقى النكبة الفلسطينية عام ١٩٤٨ شاهدة على جرائم الجماعات اليهودية ضد الإنسانية، كما تبقى شهادات الفلسطينيين على اغتصاب الأرض وتجريفها واستبدال المستعمرات الصهيونية بالمنازل الفلسطينية، وكذلك استبدال الأسماء اليهودية بالأسماء العربية الأصيلة للمدن الفلسطينية وقراها قابعة فى ذاكرة المحتل والمغتصب مهما طال الزمان ومهما كانت حنكة الجانى وفطنته.

من هنا تكمن خطورة الشعر الإسرائيلى على وجه الخصوص في حقيقة مادته التى تتحدث عن أحداث تاريخية ترتبط بطبيعة الصراع الفلسطينى الإسرائيلى، وجذوره فى الأرض. فالشعر حالة وجدانية يحس بها الشاعر وينطق بها فى كلمات مرصوصة ومنتظمة نابعة من القلب، ولكن حينما يعبر الشعر العبرى عن مثل هذه الأحداث؛ فتبقى مسألة فكرة اتساق القيم لدى الشعراء الإسرائيليين الذين كتبوا قصائد عبروا فيها عن الأحداث التي رافقت قيام الدولة، وما جرى بعدها، قيد التقييم والدراسة؛ فإلى أى مدى تحققت هذه القيم من عدمه؟ وإلى أى مدى يمكن انتاج نص شعرى مغاير للحقيقة أو متفق معها؟

ويظل السؤال حول طبيعة الشعر العبري الذي نُشر في أعقاب النكبة الفلسطينية وفي العقد الذي تلاها قائماً، فكيف تعامل مع الآثار التي خلفتها

هذه الحرب، وتداعيات استخدام العنف والاضطهاد ضد الفلسطينيين، وموقفه من تلك الأحداث، وكيف تعرض هذا الشعر للمصير الفلسطيني بعد الطرد والتهجير؟ وما موقفه من عدم السماح للفلسطينيين بالعودة إلى بيوتهم وأراضيهم بعد نهاية الحرب؛ في ظل مخطط تهويد القرى والمدن الفلسطينية؟ فهل التزم الشاعر العبري بالمعايير الأخلاقية والانسانية للشعر في التعبير عن جرح الآخر الفلسطيني؛ وما لاقاه من أهوال القسوة والعنف، ومن ثم الطرد؟

فرغم محاولات التفريغ والتغييب التى اقترفتها إسرائيل ومن قبلها الحركة الصهيونية فى حق الفلسطينيين منذ عام ١٩٤٨ وحتى وقتنا هذا؛ تبقى النكبة الفلسطينية قابعة فى الذاكرة الإسرائيلية، بكل مآسيها وضحاياها من الفلسطينيين ممن فقدوا وطنهم الذى ما زال يعيش فيهم ويحيون على أمل العودة إليه.

وتبقى النكبة الفلسطينية قابعة أيضاً فى الأدب والتاريخ الإنسانى كشاهدة على عشرات المجازر والفظائع وأعمال النهب ضد الفلسطينيين، وهدم قراهم وتحطيم مدنهم وتحويلها إلى مدن يهودية؛ ومحاولات تدمير الهوية الفلسطينية ومحو الأسماء الجغرافية العربية واستبدالها بأسماء عبرية.

وعلى الرغم من محاولات الكثير من الأدباء الإسرائيليين تجاهل الآخر الفلسطيني وعذاباته في نتاجاتهم الفكرية والأدبية، والتعامل مع النكبة

بهدف طمسها ومحوها وكأنها قصة تاريخية منتهية، فإن هناك أعمالاً أدبية في إسرائيل لا تستميت في طمس النكبة الفلسطينية وتداعياتها، وترفض تكريس الرؤية الأحادية للمؤسسة الحاكمة فى إسرائيل. وعلنا نذكر رواية (خربة خزعة) التى صدرت للأديب الإسرائيلى ساميخ يزهار عام ١٩٤٩؛ التى تحدث فيها عن إحدى القرى الفلسطينية التي تم تهجير سكانها بالكامل، فتلك الرواية تعد "شهادة" فى الأدب العبري ضد محاولات طمس معالم النكبة الفلسطينية؛ والدفع بها إلى مجاهيل النسيان.

ويمكن القول، إن حرب (١٩٤٨) تعد بمثابة نقطة تحول حقيقية في موقف الأدب العبري تجاه العربي الفلسطيني، إذ خرج العربي منذ ذلك الحين من طور المثال الرومانسي إلى طور الواقع الملموس الذي يتعين على الأديب التعامل معه. وقد سيطرت على أدب هذه المرحلة، أي أدب الأربعينيات والخمسينيات، روح الصراع بين ممثلي الأيديولوجية الصهيونية الاشتراكية التى دعت إلى التعايش مع العرب وبين ممثلي التيار الصهيوني العدواني الذي ارتكب خلال حرب (١٩٤٨) العديد من المذابح الشهيرة ضد العرب العزل[١].

من هنا تأتى أهمية المجموعة الشعرية العبرية ("لا تخبروا فى جت"، النكبة الفلسطينية فى الشعر العبرى ١٩٤٨ـ١٩٥٨)؛ التى أعدها الناقد الإسرائيلى البرفيسور حانان حيفر وآخرون؛ والتى صدرت فى عام

٢٠١٠؛ أى بعد أكثر من ستين عاماً على النكبة الفلسطينية؛ لتخرج عن النص المكتوب في الأدب الإسرائيلى الذي يحاول طمس النكبة الفلسطينية كجزء من الحرب المتواصلة ضد الوعي والذاكرة. وذلك "منذ أن أدرك زعماء الصهيونية أن عليهم بناء قوتهم العسكرية الذاتية التى يستطيعون بها مواجهة الواقع المتمثل فى الرفض الفلسطينى والعربى لوعد بلفور، أو الخطوات التى اتخذتها دولة الانتداب –بريطانيا– لتنفيذه. وسارعت الصهيونية إلى التركيز على زيادة التسليح وتدعيم قدرة اليهود العسكرية، ووضع الخطط الكفيلة لتحقيق غايتها فى تهويد فلسطين[٢].

هذه المختارات الشعرية – محل الدراسة– هي مجموعة من الشعر العبري الذى نظم بين يناير ١٩٤٨ وديسمبر ١٩٥٨ وتطرق؛ سواء بصورة رمزية أم جليّة، للنكبة الفلسطينية. وهي خلاصة بحث طويل وشامل، تم خلاله رصد الشعر العبري وكيفية تعامله مع النكبة في الكتب والصحف العبرية منذ نهاية نوفمبر ١٩٤٧ وحتى نهاية عام ١٩٥٨.

وتحتوى هذه المختارات الشعرية أيضاً على شهادات للاجئات ولاجئين فلسطينيين، ممن عاشوا في فلسطين حتى عام ١٩٤٨، يحكون فيها عن حياتهم أثناء النكبة وبعدها. وهى شهادات منقولة عن سلسلة الكتيبات التي تصدرها جمعية "زوخروت" (يذكرن) حول المدن والقرى الفلسطينية المهدمة. وهى "شهادات لمطرودين فلسطينيين وإناس يبلغون من العمر

سبعين عاما وأكثر، وقد عاصروا النكبة وهم صغار. وقد جاءت هذه الشهادات موجزة وحقيقية؛ تحدثوا فيها عن هدم البيوت وفقدان الممتلكات والسير فى الوديان والبحث عن ملاذ يأويهم. فما بين الشعر والكلام فارق كبير يكمن بين الحديث الشعرى الرفيع الرمزى المتشبع بالأفكار حتى الانفجار، وبين الصوت الشجاع لتلك الشهادات؛ فهذه الشهادات تفضح الشعر القابع فى أسر لغة الكلام والرمز وفقدان علوه دون أن يسمعه أحد "[٣].

وكشهادة على عمليات الطرد التي لحقت بالفلسطينيين تقول "فاطمة حسن منصور، أم مروان" المولودة في قرية "عنان" الفلسطينية سنة ١٩٣٦، في شهادتها التي وردت ضمن المجموعة الشعرية "لا تخبروا في جت" قولها "لا أذكر اليوم الذي طُردنا فيه جيداً، ولكنني سأقص القصة من البداية، دخل اليهود إلى قريتنا وحاصروها ومنعوا الدخول أو الخروج منها، ثم قالوا للناس بأنّهم سوف يدمروا البيوت على أهلها واحداً تلو الآخر، وفعلاً دمروا بعض البيوت فذُعر الناس، وتركوا بيوتهم وممتلكاتهم وهربوا إلى منطقة نُسميها أرض الخلا، والتي تعود ملكيتها لأشخاص من قريتنا، وخرج جميع أهل القرية إلى هناك، وعندما وصلنا أرض الخلا، وقف الجيش الإسرائيلي في صفين على جانبي الطريق، وسرنا نحن في المنتصف بينهم، ثم أخذونا من أرض الخلا إلى مفترق طرق صفد، وقالوا

لنا اذهبوا من هنا في اتجاه الجبل، ولا تنظروا خلفكم، ومن ينظر سنطلق عليه النيران، وأثناء سيرنا رأيت كومة من البشر؛ فقلت لأمي انظري لهؤلاء الأشخاص إنهم ينامون في الشارع، ولكنني أدركت على الفور إنّهم ميتون. ثمانية قتلى، قتلوهم ووضعوهم في كومة واحدة. ثم واصلنا السير حتى وصلنا إلى بنت جبيل (جنوب لبنان) ليلاً[٤].

وهكذا "فإذا كان الشعر العبرى لم ينجح فى التعبير بصفة عامة عن واقع النكبة الفلسطينية بكل مآسيها؛ فإن الكثير من شهادات المطرودين الفلسطينيين وأبناءهم قد عبرت عنها بقوة كبيرة فى هذه المجموعة الشعرية"[٥]. وربما جاءت هذه الشهادات لتنسف الرواية الصهيونية حول النكبة، والتعامل معها من منطلق أن "هرتسل كان يرى اليهود مجتمعاً من البشر، يكون وحدة واحدة لها خصائص تميزها عن بقية الجماعات. وأن (الجماعات اليهودية) لها أفضلية مطلقة على كل الشعوب تشبه تماماً ما ادعاه الشعب الألمانى لنفسه من فضائل وصفات لا توجد فى غيره من الشعوب"[٦].

ويرى بعض النقاد الإسرائيليين؛ أن هذه المجموعة الشعرية تهدف إلى إعادة قراءة القصائد العبرية التى كتبت فى العقد الأول من قيام الدولة؛ حيث أن معظم هذه القصائد لم تنشر مرة أخرى بعد ظهورها الأول فى الصحافة العبرية منذ خمسين عاماً أو أكثر؛ ويمكن من خلالها أن نحكم على

الشعر العبرى وكيف تعامل مع طرد ما يقرب من ثمانمائة ألف فلسطينى وتدمير بيوتهم وتقسيم أراضيهم والحيلولة دون عودتهم. ويمكننا كذلك، أن نرى كيف تعامل الشعراء الإسرائيليون مع العنف السياسى الذى وقع أمامهم وشارك بعضهم فيه. إنها نظرة للماضى من أجل الحاضر، نستطيع من خلالها أن نتعرف على الحالة التى عاشها الشعراء الإسرائيليون وهم يحيون داخل كارثة سياسية وإنسانية مستمرة، وكيف كانت مسئوليتهم عنها كبشر ومواطنين وشعراء؟

وقد استمد محررو هذه المجموعة الشعرية عنوانها (لا تخبروا فى جت) من مرثية داوود فى العهد القديم التى رثى فيها شاؤول وابنه يوناثان فى الإصحاح الأول من سفر صموئيل الثانى، بعد أن قتله أحد العماليق فأخبر قومه بألا يحكوا عن تلك الهزيمة فى جت ولا فى ساحات أشكلون: "لا تخبروا في جت لا تبشروا في أسواق اشكلون لئلا تفرح بنات الفلسطينيين لئلا تشمت بنات الغلف" صموئيل الثانى (١ : ٢٠). وهكذا عبر داوود النبي عن مشاعره الصادقة الأمينة بمرثاة لشاؤول ويوناثان، وقد طلب من بني يهوذا أن يتعلموها لكي تبقى ذكراهما دائمة. وقد سجلت في كتاب شعري مشهور في ذلك الحين سمى "سفر ياشر"؛ وهو كتاب أدبي وليس سفرًا من أسفار الكتاب المقدس.

ويمكن القول؛ إن عنوان هذه المجموعة الشعرية عن النكبة الفلسطينية قد جاء بالصيغة المعكوسة لـ (لا تخبروا فى جت)؛ فقد نظمت هذه القصائد

لكى تحكى عن فظائع هذه النكبة وضحاياها من الفلسطينيين، ولكى تكشف وتفضح جرائم الحرب والطرد والتفريغ التى قامت بها المليشيات اليهودية المسلحة فى حق الفلسطينيين؛ وكأنها مرثية على غرار مرثية داوود؛ صاغها محررو هذه المجموعة الشعرية لكى تبقى ذكرى النكبة قائمة ودائمة فى سجل شعرى يؤرخ للنكبة الفلسطينية بأيدى مرتكبيها. وقد تكون هذه المجموعة الشعرية مرثية لإسرائيل؛ لما اقترفته فى حق الإنسانية من اغتصاب وقتل وسفك لدماء الفلسطينيين؛ مثلما ذكر الشاعر الإسرائيلى آريه ستراوس فى إحدى قصائده التى تتضمنها هذه المجموعة الشعرية معلناً (الرثاء لإسرائيل).

ويرى الناقد الإسرائيلى ايلاى هيرش أن استخدام هذه الجملة (لا تخبروا فى جت) كعنوان لهذه المجموعة الشعرية "يعنى أن الهزيمة المرة والفقدان الكبير الذى لحق بداوود يتطلبان صمت وكتمان" (٧)؛ وبذلك فهوعنوان يكمن فى طياته تناقض أو سخرية ما بين دعوة المؤسسة الإسرائيلية الرسمية للكتمان ومحو فظائع هذه الحرب؛ وبين دعوة الشعر العبرى المعاصر إلى البوح والاعتراف بالخطيئة فى حق الفلسطينيين؛ لا سيما وقد استخدم الشاعر الإسرائيلى ناتان ألترمان هذه الجملة فى قصيدته (على إثر ذلك) التى تضمنتها هذه المجموعة الشعرية؛ وفيها تحدث عن فظائع الطرد والقتل والرعب المتلازم للنصر الإسرائيلى فى حرب ١٩٤٨.

ويرى هيرش أيضاً أن هذا التعبير (لاتخبروا فى جت)؛ يعبر فى زمننا هذا عن مرحلة جديدة فى تاريخ الشعر العبرى؛ فقد تحول التعبير الذى استعاره ألترمان من داوود إلى عنوان لمجموعة من القصائد العبرية؛ وتلك هى المفاجأة فى استخدام تعبير استخدم لأول مرة منذ آلاف السنين من أجل إخفاء ذروة الغضب الإسرائيلى تجاه الفلسطينيين؛ ليعود مرة أخرى للكشف عن ذروة الغضب الفلسطينى تجاه الإسرائيليين "[٨].

وربما تطرح هذه المجموعة الشعرية بعض التساؤلات عن الهدف الرئيس لصدور هذه المختارات الشعرية فى ذلك التوقيت؟ وكيف يرى القاتل مأساة ضحيته؟ أو ما الذى يدفع مجموعة من الشعراء الإسرائيليين للكتابة عن النكبة الفلسطينية فى الشعر العبرى؟ وهى تساؤلات يجيب عنها المحرر الرئيس لهذه المجموعة الشعرية حانان حيفر بقوله: "لقد تأكد لدى الجميع فى إسرائيل أنه لن يستقر السلام بيننا وبين الفلسطينيين إذا لم نعترف بارتكاب الكارثة الفظيعة التى وقعت عليهم عام ١٩٤٨. فليس المقصود فقط عمليات الطرد وجرائم الحرب، بل الأكثر من ذلك أن إسرائيل حالت دون عودتهم إلى أراضيهم بعد انتهاء الحرب؛ وهو ما يتعارض مع الحقوق الإنسانية. فإذا لم يحدث اعتراف إسرائيلى قوى وتحمل للمسئولية فلن يكون هناك سلام "[٩].

ويرى الشاعر والمؤرخ الإسرائيلى ماتاى شمئلوف أن هناك أكثر من سبب لصدور هذه المجموعة الشعرية فى ذلك التوقيت؛ حيث يقول:

"يكمن السبب الأول فى آداب المهنة والأخلاق التى تحكم عالم الأدب والثقافة. والسبب الثانى هو محاولة لإعادة وصف العلاقات بين ما هو سياسى وأدبى؛ أى استقراء العلاقة بين الجرائم السياسية وكتابة الشعر. بينما يكمن السبب الثالث فى دراسة الماضى؛ فالأمر لا يقتضى فقط وصف الحاضر وتقنينه؛ بل هناك ضرورة لرسم العلاقات الأدبية المستقبلية بين اليهود والعرب فى إسرائيل"(١٠).

بينما يرى الأديب والناقد الأدبى أيمن سكسك أن الكتابة هى الوسيلة الفنية المهمة للغاية التى تبقى من خلالها الجروح القومية؛ وتختفى فى حالات معينة أيضاً، حيث يقول: "ما يهمنى فى هذا الأمر هو أن نرى كيف تعامل الشعر العبرى آنذاك مع الجرح الفلسطينى الذى مازال الاعتراف الرسمى به محل خلاف حتى يومنا هذا... فمن الممكن أن نرى فى هذه المجموعة الشعرية كيف محت بعض القصائد العبرية النكبة الفلسطينية وتعاملت معها فى نفس الوقت؛ فقد نرى بيوتاً مهجرة دون أن يذكر من الذى سكنها قبل هجرها، وقد نقرأ عن أشجار وحقول وجنان؛ دون أن يذكر الشاعر من الذى شيدها"(١١).

ومن هنا فإن الساحة الجغرافية وليس البشر فى بعض قصائد هذه المجموعة الشعرية؛ هى البطل الذى يتحدث عنه هؤلاء الشعراء الإسرائيليون الذين يعترفون بالنكبة الفلسطينية إنسانياً؛ وفى نفس الوقت يمحون الفلسطينى ذاته. وهكذا كان حال الشعر العبرى فى تعامله مع الآخر

الفلسطيني؛ فهو يحاول الاقتراب من الواقع الذى حدث وربما يشجب ويدين ويتظاهر بالتعاطف؛ وفى نفس الوقت يطمس أدلة قد تدينه؛ فهو لا يقوى على الاعتراف المباشر بالمسئولية؛ فالمسئولية هنا وفى مثل هذه الحالات، كاملة لا تجتزئ، خاصة فى ظل تساؤلات عديدة من قبل شباب إسرائيليين يسألون أنفسهم عن السبب الذى أدى بهم إلى ما يحدث حولهم اليوم من صراع، ويرغبون فى فهم جذور الوضع الذى تسيطر فيه دولتهم على الفلسطينيين؛ وتسلب أراضيهم. وهى تساؤلات مشروعة من قبل أجيال جديدة لا ترى فى دولتها مقومات الوطن الطبيعى بمفهوم الطبيعية التى تشدقت بها الحركة الصهيونية، ومن ثم فهى تساؤلات عن جذور الوطن وإرهاصات وجوده فى ظل عداء وصراع دائم لا ينتهى.

"وبخلاف المختارات الشعرية الأخرى؛ فان هذه المجموعة الشعرية لم تتبع معياراً أدبياً معيناً، فلم يختار المحررون؛ بصفة خاصة؛ القصائد الجيدة التى كتبت من وجهة نظرهم حول موضوع النكبة. لقد كان المعيار الوحيد الذى اتبع فى هذه المجموعة الشعرية هو السؤال الذى يقول: هل اهتمت القصائد العبرية بالنكبة الفلسطينية أم بحرب ١٩٤٨؟ وكيف استطاع الشعر العبرى؛ على اعتبار أنه يدور فى فلك مؤسسة أو هيئة؛ أن يربط بين ولاءه للمجتمع القومى الإسرائيلى وبين الاعتراف بأن الاستيطان اليهودى على أرض فلسطين كان على حساب شعب آخر أو على حساب أناس آخرين صاروا فيما بعد لاجئين"[١٢].

وقد تأتى هذه المجموعة الشعرية كمحاولة للفت انتباه الكثيرين ممن يؤمنون بأن المشروع الصهيونى لدولة يهودية لم يفشل بعد ويتمسكون به؛ فطالما ظلت الهوية اليهودية تسلب الهوية الفلسطينية وتتعامل معها كما لو أنها أمر منتهى؛ وهو ما يبدو فى التركيز على نتائج حرب ١٩٦٧ ومحاولات محو تداعيات حرب ١٩٤٨؛ فلن يكون هناك حل للصراع من وجهة نظر البعض من الساسة والنقاد الإسرائيليين. وهو ما يؤكد عليه معد هذه المجموعة الشعرية حانان حيفر بقوله: "إننى مؤمن بأن هذه المجموعة الشعرية سوف تثير اهتمام الكثيرين خاصة الشباب؛ وسوف تأخذهم فى رحلة إلى ضبابية الوعى الإسرائيلى وكيفية مواجهته للنكبة الفلسطينية. إننى مؤمن بأن العودة إلى عام ١٩٤٨ تستطيع إحداث تغيير فى الفكر السياسى بإسرائيل وربما تعطى بارقة أمل لبديل سياسى وروحانى"[١٣]. فهناك أدباء إسرائيليون؛ مثل رونيت متالون[١٤] على سبيل المثال؛ يهتمون كثيراً بمسألة الهوية الإسرائيلية ويتبنون الموقف السياسى الحقيقى فيما يتعلق بجذور الوجود اليهودى على هذه الأرض، لا سيما وقد نهض جيل جديد من الشعراء ليهدم أو ليكشف عن حقيقة الموقف الأخلاقى القومى؛ وذلك من خلال فهم عميق بأن هذا الموقف الأخلاقى القومى والتقليدى هو موقف مستحيل فى ذلك التوقيت.

ويمكن القول؛ إن هذه المجموعة الشعرية تعد وثيقة شعرية تضاهى الشهادة التاريخية على هذه الحرب؛ فربما رأى محررو هذه المجموعة الشعرية

أن الشعر قادر على التعبير عن كافة المضامين الضرورية أو الاحتجاجية؛ التى لم يستطع التاريخ الرسمى أن يذكرها أو يتطرق إليها؛ وكانت شهادات المواطنين الفلسطينيين الذين عاشوا وسكنوا فى القرى التى دمرها الجيش الإسرائيلى خلال تلك الحرب بديلاً لذلك التاريخ؛ لاسيما وأنها خلقت نوعاً من التوتر القوى داخل هذه المجموعة الشعرية التى رفضت بشدة حل أو تهدئة هذا التوتر.

ويقول الناقد الإسرائيلى أمير بنباجى: "إننا نلتقى بشعر بليغ ومؤثر، شعر يقبض بيديه على الثقافة العبرية وعلى القيم التى يعرضها. لقد تم إعداد هذه المجموعة وإصدارها فى كتاب بصورة غريبة وملفتة؛ فبعض الصفحات السوداء لهذه المجموعة الشعرية؛ تشير إلى سجل ذكريات؛ كما يذكرنا تصميمه الضيق والطويل بحكايات عيد الفصح. إنه كتاب قد لا نجد له مكاناً على الرف سواء أكان رفاً أدبياً أم رفاً تاريخياً، فمن الواضح أن محرريه كان لديهم الرغبة فى كتابة فصل لتاريخ الشعر العبرى؛ أى رغبوا فى أن يكونوا علميين. ومع هذا؛ فإن هذه الرغبة فى تسجيل الذكريات كانت عبر مؤسسة الشعر العبرى؛ ولذا فقد قرروا إضافة الصوت الثاقب والمثير للاجئين الفلسطينيين؛ وكذلك المشهد المثير للصفحات السوداء بين القصائد العبرية"[١٥].

وقد أعقب هذه المجموعة الشعرية سجال كبير حول (قانون النكبة)[١٦] الذى أقره الكنيست الإسرائيلى فى الثانى والعشرين من مارس ٢٠١١ وصادقت عليه المحكمة العليا فى فبراير ٢٠١٢؛ الذى يحظر فيه على المؤسسات والجمعيات والهيئات الإسرائيلية إحياء ذكرى النكبة الفلسطينية؛ الأمر الذى دفع بعض المفكرين الإسرائيليين وجمعيات حقوق الإنسان والمعهد الإسرائيلي للديمقراطية إلى الوقوف ضد هذا القانون، حيث أعربوا عن معارضتهم له؛ مؤكدين أنه سيلحق أضراراً كبيرة بحرية التعبير عن الرأي في إسرائيل، وأشاروا أنه يهدف إلى نزع الشرعية عن الجمهور العربي، ويتدخل في مشاعر الناس وأحزانهم.

لقد دفع قانون النكبة بعض المفكرين الإسرائيليين إلى القول بأن محاولات محو الذاكرة الإسرائيلية من النكبة الفلسطينية؛ تشكل خطورة كبيرة على الثقافة العبرية بكافة أنواعها؛ فيقول ميخائيل يعقوفسون: "من خلال الحالة السياسية التى تظل فيها النكبة الفلسطينية منكرة ومكممة من قبل المشرع الإسرائيلى عن طريق الأحكام والقوانين، تشير هذه المجموعة الشعرية بأن الذى يطلب محو النكبة الفلسطينية وذكراها؛ لم يضطر إلى محو بقايا الثقافة الفلسطينية ومحاربة ذكرى وحياة الفلسطينيين الذين مازالوا يعيشون هنا فحسب؛ بل سيكون عليه محو الشعر العبرى ذاته والثقافة العبرية الحاضرة فيها النكبة الفلسطينية بقوة، وفى النهاية محو البلاد كلها"[١٧].

ومن ناحية أخرى؛ تحتوى هذه المجموعة الشعرية على بعض القصائد التى تبدو فيها التناقضات واضحة وملموسة؛ فهى تعرض للنكبة وذكرياتها، وفى نفس الوقت تتماثل – لا نستطيع أن نقول تبرر- مع الظلم الذى وقع ضد الفلسطينيين. وهو ما يؤكد عليه الناقد الإسرائيلى هيرش بقوله: "تحتوى هذه المجموعة الشعرية على قصائد كتبها شعراء إسرائيليون وتطرقوا فيها إلى ذكريات الفلسطينيين الذين حالت إسرائيل دون عودتهم مرة أخرى إلى بيوتهم؛ ففى السنوات التى أعقبت النكبة ظلت الذكريات أكثر نضارة ووضوحاً. فقد عالجت هذه القصائد قضايا عدم الاستقرار والمصير الفلسطينى والشعور بالشفقة تجاه أحداث الاحتلال وما خلفه من معان غير أخلاقية. ومن ناحية أخرى يبدو أن معظم هذه القصائد قد كتبت من وجهة نظر صهيونية أو على الأقل يهودية إسرائيلية، ولذا فإن بعض القصائد غير واضحة الهدف ومتناقضة؛ فهى ترثى الظلم الذى يتماثل فيه الشاعر مع منفذيه ويشعر بأنه شريك فى الواقع الذى ترعرع فيه. . . ويبدو على السطح استعراض لأحاسيس أخلاقية تبدو بعد تدقيق وفحص كإستراتيجية نسيان أو كتمان"[١٨].

مرة أخرى، يمكن القول؛ إن هذه الدراسة سوف تحاول تقييم فكرة اتساق القيم عند الشاعر ومدى تحققها من عدمه؛ كما ستحاول الإجابة عن أسئلة ملحة تفرض نفسها وبقوة حول طبيعة الشعر العبرى الذى نشر فى أعقاب النكبة الفلسطينية وفى العقد الذى تلاها؛ وكيفية تعامله مع الآثار

التى خلفتها هذه الحرب؛ وتداعيات العنف تجاه الفلسطينيين. فهل تعرض هذا الشعر للمصير الفلسطينى بعد الطرد والتهجير وعدم السماح للفلسطينيين بالعودة إلى بيوتهم وأراضيهم بعد نهاية الحرب؟ وإذا كان قد تناول هذه الأمور؛ فهل تناولها بصورة كلية أم جزئية؟ أى هل تناول بعض الحقائق والأحداث وأهمل وأسقط البعض الآخر؟ وهل نجح الشعر العبرى فى ألا يحيد عن الالتزام الأخلاقى العام للشعر فى التعبير عن جرح الآخر الفلسطينى؟ وهل نجح الشعراء الإسرائيليون فى إظهار المشاعر الإنسانية والأخلاقية أو حتى الاحتجاج ضد السلطة تجاه ما حدث للفلسطينيين من معاناة وتدمير للقرى وطرد للمواطنين من قبل الجيش الإسرائيلى؟ وهل كانت هذه المشاعر الإنسانية حقيقية؟ أم أنها محاولة لتجميل وجه إسرائيل القبيح الذى ظهر بعد هذه الحرب؟

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذه الدراسة سوف تتناول دراسة بعض القصائد الواردة فى هذه المجموعة الشعرية من ناحية المضمون فحسب؛ حيث أن دراسة الشكل تتطلب اتساقاً شعرياً واحداً لشاعر أو اثنين؛ وهو ما يصعب تحقيقه فى هذه المجموعة الشعرية التى تحتوى على أكثر من خمس وأربعين قصيدة لأكثر من أربعين شاعراً تناول كل منهم موضوع النكبة الفلسطينية طبقاً لأهدافه وانتماءاته السياسية وقناعاته الفكرية.

وعلى هذا الأساس نعرض للنكبة الفلسطينية فى الشعر العبرى؛ وعبر التحليل الأدبى لبعض قصائد هذه المجموعة الشعرية فى هذا الكتاب من

خلال ثلاثة فصول، كان الفصل الأول منه بعنوان (القرى والمدن الفلسطينية بين "التفريغ" و"التغييب)؛ وفيه تم تناول القصائد العبرية التى تحدثت عن تفريغ المدن الفلسطينية وقراها من سكانها إبان حرب ١٩٤٨، وكانت أغلب هذه القصائد لشعراء عبريين عاصروا المجازر اليهودية فى حق الفلسطينيين من نساء وأطفال وعجائز.

أما الفصل الثانى من هذا الكتاب فكان بعنوان (الممارسات والجرائم الأخلاقية للجنود الإسرائيليين)؛ وفيه تم تناول القصائد العبرية التى تحدث فيها الشعراء الإسرائيليون عن أبشع الجرائم الأخلاقية التى اقترفت فى حق النساء والأطفال من قبل الجنود اليهود الذين ارتكبوا من الجرائم الإنسانية ما أفظعها.

وجاء الفصل الثالث والأخير بعنوان (الذاكرة الإسرائيلية والجغرافيا الفلسطينية "احتلال الوعى") وفيه تم تناول العديد من القصائد العبرية التى تعبر عن احتلال الأحداث التى جرت إبان حرب ١٩٤٨ للوعى الإسرائيلى؛ فرغم الحديث عن قرى بعينها وأخرى مجهولة دون ذكر اسمها فى الكثير من القصائد؛ فإن هذه المدن قابعة فى الذاكرة الإسرائيلية؛ التى وإن استطاعت أن تمحوها على الأرض فإنها لم تستطع محوها من الذاكرة؛ فهى تؤرق هؤلاء الشعراء وتذكرهم بعمليات الطرد والتهجير وسفك

الدماء والدمار؛ الذى ألحقه الجيش الإسرائيلى بهذه المدن والتى أقيم على أنقاضها الاستيطان الصهيونى.

والله ولى التوفيق؛ ؛ ؛

أ.د.عمرو عبدالعلى علام

القاهرة فى مايو ٢٠١٧

amrelaly@hotmail.com

الفصل الأول

القرى والمدن الفلسطينية

بين "التفريغ" و"التغييب"

القرى والمدن الفلسطينية بين "التفريغ" و"التغييب":

" كانت الصهيونية بكل تياراتها واحدة من المظاهر البارزة للتحول العام الذي بدأ يحدث في وعي الهوية اليهودية المستقلة في العصر الحديث، حيث أظهرت الصهيونية وسط الحركات القومية والاجتماعية العلمانية التي بلورت وجه الحضارة الغربية في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين الحاجة إلى خلق هوية يهودية قومية علمانية لتكون بديلاً ثقافيًا كاملاً للهوية اليهودية الدينية التقليدية "[١٩]. وقد تتطلب تحقيق هذا الهدف عند قيام الدولة على أرض فلسطين، عمليات تفريغ وإبادة للقرى والمدن الفلسطينية على أوسع نطاق.

كانت الأحداث الدموية التى سبقت حرب ١٩٤٨ نقطة الانطلاق الأولى لتفريغ المدن والقرى الفلسطينية من سكانها. وفى أعقاب هذه الحرب؛ انطلقت دولة إسرائيل نحو طمس معالم الجغرافيا الفلسطينية وإحلال جغرافية عبرية بديلة. وقد أعقب ذلك؛ إقصاء القرى الفلسطينية المهجرة من التخاطب والحوار في إسرائيل؛ حيث واصلت السلطات الإسرائيلية بشكل منهجي طمس المعالم العربية الإسلامية للبلاد من التاريخ والذاكرة الجماعية لدى الإسرائيليين بعد محوها بالجغرافيا.

" وقد جاء بوعز عفرون ليؤكد فى كتابه الشهير(الحساب القومى) عدم صحة العديد من المزاعم المتوارثة والتى تتحدث عن حق تاريخى يهودى

قديم فى فلسطين يبرر اقتلاع وطرد شعب كامل من دياره وأراضيه لإقامة وطن لليهود فى فلسطين "[٢٠].

والغريب فى الأمر أن الكثيرين من المؤرخين والنقاد والأدباء الإسرائيليين يعترفون بعمليات "التفريغ" التى قامت بها إسرائيل ضد القرى والمدن العربية فى هذه الحرب؛ وما أعقب ذلك من محاولات ممنهجة لـ"تغييب" هذه القرى عن الذاكرة الإسرائيلية؛ بهدف قيام جيل جديد يحمل هوية يهودية جديدة ذات خصائص قومية تدفعه للتمسك بالبلاد والدفاع عنها.

وهو أمر يؤكد عليه الناقد الإسرائيلى آريئيل هيرشبيلد بقوله: "لقد طمست دولة إسرائيل صنيعها؛ وحولت القرى الفلسطينية المهجرة إلى مناظر طبيعية ساحرة من البساتين. ومحت أسماء القرى العربية من الواقع ومن الخريطة... إن المزج بين مشاعر العدل والاتهام أمر قاتل؛ فهو يغيب الوعى الإسرائيلى عن واقع النكبة. ويعد التغييب؛ فى هذه الحالة؛ تطرفاً كبيراً؛ لدرجة أن الإسرائيلية لم تكن مهيأة للاعتراف بهذا التغييب اعترافاً واقعياً. لقد أدرك قادة الاستيطان عام ١٩٤٨ بالحس التاريخى التخيلى؛ أنهم يصنعون شيئاً لابد وأن تكون قدرة التغييب والإنكار اليهودى فيه مكتملة، حتى وإن تم صنعه بأسلوب جارف ووحشى؛ دون أن يضعوا فى الاعتبار رد فعل جاد من الجانب الآخر "[٢١].

وتؤكد الناشطة والباحثة الإسرائيلية نوجا كدمان فى كتابها (على جانبى الطريق وهوامش الوعى) على "المنهجية الإسرائيلية المعتمدة منذ النكبة في إبعاد القرى الفلسطينية المهجرة من مشهد الحوار في إسرائيل من خلال عدة وسائل؛ مثل محو تسميات الأماكن الفلسطينية أو عبرنتها، وإزالتها من الخرائط الرسمية، ومثل تجاهل تاريخ وهوية القرى الفلسطينية الواقعة ضمن المنتزهات الوطنية؛ حيث تقوم سلطة حماية الطبيعة الإسرائيلية بشطب الحقبة التاريخية العربية الإسلامية من اللافتات التي تشرح تاريخ الأماكن في نطاق المتنزهات الوطنية؛ بينما تلقى الضوء على تاريخها القديم وتتعامل معها كجزء من الطبيعة فقط. كما تتجاهل السلطات الإسرائيلية التاريخ العربي للقرى الفلسطينية المهجرة؛ خاصة ذات الآثار التاريخية ولكنها تهتم بإظهار الصلة اليهودية للمكان من الناحية التاريخية. ففي قيساريا؛ على سبيل المثال حيث توجد هناك آثار عربية كبيرة ومسجد بنيت جذوره فى فترة الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان؛ تقتصر الشروحات على الحقبتين البيزنطية والصليبية فقط." (٢٢).

ويبدو أن الشعر العبرى الذى تناول النكبة الفلسطينية وعمليات الطرد والتهجير من المدن والقرى الفلسطينية؛ قد صار على نفس النهج؛ على الرغم من التعاطف الإنسانى مع ما حدث. فقد تناول الشعراء الإسرائيليون الممارسات الوحشية للجنود الإسرائيليين ضد الفلسطينيين؛ وتجاهل

بعضهم أسماء القرى الفلسطينية؛ ووصفوها دون هوية؛ الأمر الذى يدفعنا إلى التأكيد على الصلة القوية التى ربطت الشعر العبرى بالأحداث التاريخية التى مر بها اليهود فى العصر الحديث؛ حيث عمل الكثير من الشعراء العبريين على تحقيق أهداف الحركة الصهيونية فى استيطان الأراضى الفلسطينية تمهيداً لقيام دولة لليهود؛ وكان الشعر العبرى آنذاك هو المعبر الرئيس عن توجهات وطموحات الرواد الصهيونيين، واصطبغ جزء كبير منه بصبغة إنسانية كان باطنها هو الصهيونية؛ فالحنين إلى إقليم قومى كان هو الباعث الرئيس للشعر العبرى مع نهايات القرن التاسع عشر.

ومثلما كان للشعر العبري دوره في الترويج للحركة الصهيونية ولدولة اليهود التى تسبب قيامها فى قتل وتشريد آلاف الفلسطينيين، كان لهذا الشعر دوره أيضًا في التعبير عن تداعيات حرب ١٩٤٨؛ وفيه مارس الشعراء الإسرائيليون اتجاهات مختلفة ومعقدة ومتنوعة للتغطية أو التمويه على عمليات الجيش الإسرائيلى فى طرد وتهجير الفلسطينيين من قراهم.

(١) وحول عمليات التفريغ والتغييب؛ يطالعنا الشاعر الإسرائيلى دانيال بن ناحوم بقصيدة نشرتها صحيفة "عل هامشمار" فى مايو ١٩٥٠ تحت عنوان כפר נטוש (قرية مهجورة)؛ يقول فيها:

دخان كثيف يحلق فى سماء القرية

يتدافع فى ظلمة من الأكواخ الطينية

يزحف فى مرونة بين منحدرات الجبل،
ويحتك بأشجار الزيتون والنخل.
وبين النيران يخطو بلباس قمحى
يتزحلق نحو نهر الأردن
يمتد عبر القرية فوق التل عائداً وغريباً
يبرق ويغرق دون اعتراض.
فى الخندق يقف بين البندقية والمعول
مهموم بك، بكل الأحاسيس فالقلب وفى
ففى هذه المعركة لا رحمة ولا عجب.
فها هى قرية خربة؛ تحتضر بين الدخان والمؤامرة
وأكواخ تنهار؛ بين عويل وصراخ الطفولة وأنين أم
تتوارى ؛ فالدخان مرير ومذرف للدموع[٢٣].

هكذا؛ يحدثنا الشاعر عن نموذج لقرية من القرى الفلسطينية التى طالها مخطط "التفريغ" دون ذكر لاسمها؛ فقد حرقها الجنود اليهود دون رحمة أو إنسانية وأفرغوها من أهلها فى معركة لا تعرف "الرحمة ولا العجب"؛ فكل شىء فى هذه المعركة مباح؛ وقد اكتست "سماء القرية ومنحدراتها" بالدخان الذى احتك بـ"أشجار الزيتون والنخل" رمز السلام والنماء فى الأرض الفلسطينية. ففى هذه الحرب؛ على هذه الرموز أن تتنحى جانباً فتراكم عليها الدخان؛ ولكنه لم يحرقها؛ إيماناً من الشاعر فى أن السلام لا

يمكن أن ينتهى، فهو الأمل الباقى فى ظلمة الليل وفى حلكة الظلم. فقد احترقت القرية بأكملها وتصاعد دخانها من "الأكواخ"، شأنها شأن مئات القرى الفلسطينية التى أحرقت ودمرت، وقد أورد المؤرخ يسرائيل شاحاك عام ١٩٧٥ قائمة بأسماء ٣٨٥ قرية عربية فلسطينية دُمرت بالكامل وذلك "ليسهل بعد ذلك إقناع العالم، بأن فلسطين قبل إسرائيل لم تكن سوى "صحراء"، فقد دُكت مئات القرى الفلسطينية بالبلدوزارات، وسُويت بالأرض كل بيوتها ومعالمها وحتى قبورها وأشجارها لم تسلم من ذلك"[٢٤].

وها هى "قرية خربة" هلكها الجنود اليهود ودمروها؛ فراحت تحتضر بين "الدخان والمؤامرة"؛ وفجأة اتضحت معالم الاستيطان الصهيونى وخدع العرب الفلسطينيون واستيقظوا على صوت المدافع والحرائق وهى تحط فى كل مكان؛ فى محاولة لتفريغ القرية من سكانها؛ وهدم بيوتهم من قبل الجماعات الصهيونية المسلحة غير عابئين بـ"صراخ الطفولة" و"أنين الأمومة"، فكم من أم تركت وليدها قسراً تحت وطأة القصف والترويع، وكم من طفل تقطع قلبه صراخاً وحزناً على فراق أمه وتشتته.

ويواصل الشاعر قصيدته متحدثاً عن فلسطينى يخطو بين النيران "بلباسه القمحى" ليقف فوق التل "عائداً وغريباً"؛ يختلس النظر إلى قريته وبيته. فقد عاد ليتحسر على قريته ولكنه عاد "غريباً" بعد أن اغتصبت

أرضه وتشرد أبناءه؛ وتغيرت معالم القرية التى تهودت. ولكنه أيضاً "مهموم بها" كما ذكر الشاعر، فلن ينساها؛ حتى وإن كان لا يقوى على "الاعتراض".

لقد تحدث الشاعر عن إحدى القرى التى احترقت وهجّر أهلها؛ ومع هذا فقد أنكر المحرر الرئيس لهذه المجموعة الشعرية حانان حيفر سياسات التفريغ التى مارسها الجيش الإسرائيلى ضد الفلسطينيين؛ فيقول: "لم يكن هناك مخطط للطرد الجماعى؛ فقد اتفق القادة العسكريون على إخلاء قرى ومناطق مدنية بعينها من المواطنين؛ كما وافقوا على هدم قرى بأكملها كلما أملت الضرورة العسكرية ذلك. كما رأى الكثير من القادة العسكريين أنه من الأفضل أن تقوم الدولة اليهودية بأقلية عربية صغيرة"[٢٥]. وهى رؤية إن كانت صحيحة؛ فهى تتناقض مع الرفض الدائم لعودة اللاجئين الفلسطينيين؛ وتتناقض مع الهدف المعلن الذى صدرت من أجله هذه المجموعة الشعرية.

وهكذا؛ صور لنا الشاعر الإسرائيلى بن ناحوم مشهداً مصغراً لعمليات التفريغ التى تعرضت لها قرى فلسطينية بأكملها دون أن يقوى هو الآخر على الإعتراض؛ فقد جاء بالمشهد دون أن يعلق أو يبدى امتعاضاً مما يحدث؛ وكان مغرضاً فى استبداله الأكواخ بالبيوت، فلم يعش الفلسطينيون فى أكواخ فقط؛ فيبدو أنه يسير على نهج الأدباء والشعراء

الإسرائيليين الذين دأبوا على الحط من قدر الفلسطينى بعد ١٩٤٨ ؛ فى محاولة لتهميشه وتغييبه .

كما أن عنوان القصيدة ـ(قرية مهجورة)ـ يتسق مع مخططات التغييب والطمس التى تتبعها السلطة الإسرائيلية مع القرى الفلسطينية المفرغة ؛ حيث يأتى "الاستشهاد بالقرى (المهجورة) كمحاولة لتضميد الجرح الفلسطينى فى الشعر العبرى ؛ وفى نفس الوقت يأتى التعبير الشائع (مهجور) ليخدم ذلك التغييب ؛ ويسهل من عملية الإصلاح المستقبلى ؛ ويضفى نوعاً من الضبابية على العنصر المسئول عن تفريغ أو إخلاء القرية "[٢٦] .

(٢) وفى قصيدة أخرى بعنوان "שרידים מול הים" (أطلال أمام البحر) ؛ نشرتها صحيفة هاآرتس فى ٦ـ١٠ـ١٩٥٠ ؛ وتضمنتها هذه المجموعة الشعرية ؛ يطالعنا الشاعر الإسرائيلى يحيئيل مر بصورة أخرى من صور التفريغ والتخريب والتغييب ؛ التى تعرضت لها المدن والقرى الفلسطينية فى هذه الحرب ؛ حيث يقول :

هنا تعج الحياة ؛ وينتصر الدمار
مع أمان صاخبة وبكاء عسر
وصورة المرأة منفوخة البطن
وهى تسير بحذر بين أطلال البيوت .

هكذا . . يبدو الحجر عابساً فى مواجهة هتاف السماء
وحطام إنسان فى شارع الدمار
وبحر يقذف أجمل ما فيه عند حمرة الشمس
إنه البحر اللاعق لأقدام القصور .
وعجوز فوق كومة من الركام تنحنى فى عبوس ؛
ومن الأكواخ تبدو عينان تموتان جوعاً
وعلى بعد ؛ تصدح قصيدة بهيجة لبلدة صغيرة
وبحر قريب يغازل الرمال الكثيبة .
هنا تعج الحياة ؛ وينتصر الدمار
مع أمان قوية وبكاء عسر
وصورة المرأة منفوخة البطن
وهى تسير بحذر
بين أطلال البيوت[٢٧]

بدأ الشاعر قصيدته برسم لوحة فنية جمع فيها بين النقيضين ؛ وهما "الحياة" و"الدمار" معاً ؛ وكأنه يعرض لنا مشهد حى من مشاهد الدمار والخراب التى ضجت بها الحياة "هنا" ؛ دون ذكر للمكان أو هويته ؛ فبينما "تعج الحياة بالضجيج" وإذا بالدمار والخراب "ينتصر" ؛ فى تصوير يبين لنا صراع إحدى المدن الفلسطينية الساحلية بين الحياة والموت . فها هى امرأة فلسطينية "منفوخة البطن" ، لم يخرج وليدها بعد للحياة ، تمشى بين أنقاض

البيوت؛ وتفكر فى مصير هذا الوليد الذى سيخرج "للدمار" لا "للحياة"، بلا مأوى.

لقد تحطمت "أمانيها" وتعسر "البكاء" من فرط الحزن والانكسار؛ فالدمار صارع الحياة فى مدينتها وأتى عليها منتصراً حتى أن "الحجر بدا عابساً" وكئيباً. وهكذا بقيت هذه المرأة "حطام إنسان فى شارع الدمار"، كما يقول الشاعر الإسرائيلى، وهكذا أيضاً بقى "البحر بجماله عند حمرة الشمس" وهو "يلعق أقدام القصور" التى حلمت بها هذه المرأة لوليدها، ولكن الأمر حسمه الدمار الذى لحق بأهلها وبيتها التى بدت ركامه و"أحجاره عابسة" وكئيبة.

ويرسم لنا الشاعر أيضاً مشهداً آخر لامرأة فلسطينية "عجوز"؛ فهى نقيض للمرأة الشابة، ورمز للوجود الفلسطينى الجذرى على هذه الأرض، فهى تسير "منحنية بين الركام فى عبوس"؛ بينما تبدو "من الأكواخ عينان أخريتان تموتان جوعاً" فى شوق إلى الحياة التى سلبها هذا الدمار، فلم يفرق بين كبير وصغير؛ أو حتى وليد لم يخرج للحياة بعد.

وهكذا جمع الشاعر الإسرائيلى فى هذه القصيدة كل المتناقضات للتعبير عن الواقع الذى صار عليه الفلسطينيون فجأة بعد هذه الحرب؛ فقد جمع بين "الحياة" والموت أو "الدمار"، وجمع بين "الأكواخ والبيوت والقصور"؛ وجمع بين "الشابة والعجوز" وجمع بين "الأمانى والعبوس"، ولكنه آثر التغييب بقوله "هنا"؛ فـ"هنا" مكان دون هوية؛ وواقع تبدو فيه

أهمية المكان لا الفرد؛ فالتعاطف الإنسانى للشاعر يقابله "تغيّب كافة الظروف المتعلقة بطرد الفلسطينيين من وطنهم، واقتراف المذابح فى حقهم، وتجاهل اغتصاب أراضيهم وتهجير منازلهم؛ ولامبالاة لمصير اللاجئين الفلسطينيين"[٢٨].

(٣) وفى صورة أخرى من صور الدمار والخراب الذى لحق بالمدن الفلسطينية خلال حرب ١٩٤٨؛ وفى إطار مخطط "التفريغ" الذى اتبعته الحركة الصهيونية، و"التغييب" التى اتبعته الدولة من بعدها؛ ينقل لنا الشاعر الإسرائيلى آفا كوبينر اشتعال إحدى المدن الفلسطينية بكل سكانها فى قصيدته מראה חולות (مشهد الرمال)؛ حيث يقول:

من أشعل المدينة

دون أن يوقظ سكانها

فها هى تحترق؛ وحقولها

فى ليلة ثالثة من الحرائق.

لم أعرف تلك المدينة

التى لم يوقظ سكانها النباح

لقد احترقت واختفت

ومن البحر هبت رياح على زقاق العصافير

فبدو بيض فوق جمرات النيران

بينما السماء أكثر انخفاضاً والليل يدنو

وإذا براع يقترب ويتسمر أمام المدينة

أمام باب بدون مفصلة

بينما المدينة تغط فى هدوء كالهاوية،

خاوية على عروشها؛ باستثناء كلب أحمر.

رجع الراعى واغتسل عينيه

وإلى دائرة النار وصلت قطعانه

فالتهمتها فى جنون بالمدينة الكبيرة

التى لم يعرف الراعى اسمها[٢٩].

هكذا بدأ الشاعر قصيدته بسؤال استنكارى عن الذى أشعل النيران فى مدينة بأكملها "دون أن يوقظ سكانها"، وقد التهمت النيران "فى يومها الثالث" كل الحقول وقضت على الأخضر واليابس فى غفلة من الزمن.

وقد أنكر الشاعر أيضاً معرفته بهذه المدينة حين قال؛ "لم أعرف تلك المدينة"؛ وهو إنكار يشير إلى فكرة التغييب التى اتبعها أغلب الشعراء الإسرائيليين من ناحية؛ وإلى حجم الدمار والخراب الذى حل على تلك المدينة، الأمر الذى حال دون التعرف على معالمها من ناحية أخرى. وقد لجأ الشاعر إلى طمس هوية هذه المدينة الفلسطينية مع الراعى العربى أيضاً "الذى لم يعرف اسمها"، وهو أمر غريب؛ فمن البديهى أن يكون الراعى على علم بهذه المدينة التى يرعى فيها قطعانه.

ورغم تصوير الشاعر الإسرائيلى فى هذه القصيدة لحجم المأساة والنكبة التى تعرض لها الفلسطينيون؛ حيث صور تفحم "العصافير على جمرات النيران" و"اقتراب السماء" من الرؤوس بفعل الدخان الكثيف المتصاعد، فإنه لم يتخل عن الصورة النمطية للعربى الفلسطينى التى شاعت فى الأدب الإسرائيلى فى أعقاب هذه الحرب؛ وهى صورة العربى الراعى الذى يسكن الأكواخ والبيوت اللبنية؛ والتى يستيقظ سكانها على "نباح الكلاب". وهى الصورة التى ظهرت فى الكثير من الأعمال الأدبية للشعراء والأدباء الإسرائيليين بهدف تهميش العربى وتغييبه؛ بعدما ظهر لهم نداً قوياً يصارع من أجل قضيته.

(٤) وفى قصيدة طويلة عن النكبة وتفريغ القرى الفلسطينية؛ يطالعنا الشاعر الإسرائيلى المعروف حاييم جورى بمشاهد التهجير والحرق والدمار التى تعرضت له القرى الفلسطينية فى هذه الحرب؛ ففى قصيدته בנוף הכפרים הנטושים (فى مشهد القرى المهجورة) كتب يقول:

بينما كنت سائراً؛ والطريق طويل

بين صخورك؛ وهلال سماءك

فى طريق الأشجار؛ والمنحدرات العالية

مشمسة؛ تملؤها سحب الدخان

فإذا بالجبل يتنسم القحط والكرب

وجذور الشجيرات تحترق

بين رائحة الدخان وركض العقرب

مع طلقات فارغة؛ وبقايا نفايات أعداءى.

وذاك الدم بين فلق شفتاى

وملح العرق كالدمع المرير؛

وهجر الجمر على أبواب المغارات

وأشجار الصنوبر ضاربة فى طريق إرثى.

فى الماضى كان ليلك يهبط ساحراً كحيلاً

تبدو فيه حمرتك كرمز لحلمى

وتبدو فيه أثار دماءك فى أصالة دمى

وصفوة ابتسامتك تذوب فى الآلآم،

ذاك ليل الأساطير؛ سيرة حياتى

فى بلاد تنضح بالخوف والنار،

يبدو فيه سراج الليل كالنفس التى تحتضر،

وفيه العشب يلتصق بوجنتى.

فى الأفق البعيد يفقدون بارقة الضوء؛

وهو يقبع على وجه الهضاب العالية.

وكلاب تبكى الآن فى بلاد الصمت.

وعصفور يقفز من الخوف

فى الطريق الترابى الخالى من البشر

يكسر امتداده، وينحرف نحو المنحدر

إلى وحشة البساتين؛ إلى الطبيعة المفقودة

إلى سخام الزاوية وخيوط العنكبوت.

وهذا ولدك يعبر؛ مثلما كان منذ سنوات

ناضج فى براءته، مخلص طوال عمره

. . . .

يراك أدراج الرياح

إلى أخمص التلال فى حمرة الشمس

وفى صخب العواصف وركض التحدى.

هناك التقاه الباكى؛ والضاحك

وحتى طلوع فجرك ظل يركض على الأحجار

خفى فوق صخورك كأنه فى أحضان امرأة

تحمله رياح البحر البعيدة إلى البر

فهبة الخريف العابس: برد وسحاب[٣٠].

بدأ جورى قصيدته أيضاً بحديثه عن مدينة مجهولة لم يذكر اسمها؛ فى محاولة للتعبير عن مدى الخراب الذى لحق بالمدن الفلسطينية ومحاولات تفريغها؛ وهو من الشعراء الذين كتبوا عن الحروب؛ حيث خدم فى البالماح وشارك فى حربى ١٩٦٧ و١٩٧٣. وفى هذه القصيدة تصور نفسه سائراً

فى "طريق طويل" تملؤه "المنحنيات العالية" ؛ فإذا "الجبال تتنفس القحط والكرب" ؛ فى أعقاب هذه الحرب؛ وهوتعبير جميل ومعبر؛ فالجبال التى لا تهزها الرياح ها هى تتأثر بالخراب؛ حيث احترقت الأشجار إلى "جذورها" ، وملأت طلقات "الغدر" كل مكان؛ وعم الخراب أرجاء المدينة. لقد ذابت تلك المدينة، التى اشتهرت فى الماضى بـ" ليلها الساحر والكحيل" ، فى "الآلام" ، وانضمت إلى "بلاد تنضح بالخوف والنار" ؛ وأصبحت "خالية من البشر" فى إطار التفريغ الممنهج؛ وهو الهدف الأساسى لتلك الحرب.

وقد واصل جورى وصفه لهذه المدينة كنموذج لسائر المدن التى تعرضت للخراب والتفريغ على أيدى غزاة لم يذكر عنهم شيئاً فى هذه القصيدة؛ فقد اكتفى بالوصف دون أن يذكر ولو فى شطر واحد من فعل هذا؟ فربما لم يقو على الإدانة فى فترة كان فيها الشعر الإسرائيلى مسانداً ومبرراً، وربما يكتب عن فاعل معروف –دولته- لا يرى ضرورة لذكره؛ فما فعله أهم بكثير؛ فقد جرد إناس من وطنهم وطمس معالم مدنهم وقراهم؛ وربما يكتب مفتخراً بما فعله الجنود اليهود، وهو أمر يصعب تصديقه فلا يمكن أن يفخر أو يتغنى شاعر بخراب ودمار.

ورغم عدم ذكر هوية هذه المدينة أو اسمها؛ فقد أحسن جورى وصفه للخراب الذى لحق بهذه المدينة؛ حيث أخذه "الطريق الترابى الخالى من

البشر" إلى "وحشة البساتين والطبيعة المفقودة"؛ حيث يخاطب جورى هذه المدينة قائلاً: "إن ولدك... المخلص طوال عمره" يراك دوماً فى فصل الخريف "أدراج الرياح" حيث "البرد والسحاب والرياح".

ولا شك أن مسألة تغييب المدن الفلسطينية قد يساهم في تنشئة أجيال إسرائيلية تؤمن بعدم وجود قرى فلسطينية مفرغة تحت مستوطناتهم؛ حيث تقول الباحثة الإسرائيلية نوجا كدمان فى كتابها (على جانبى الطريق وهوامش الوعى): "إن نظرة الجهل التي رأيت من خلالها وأنا طفلة؛ خرائب قرية (لفتا)، ورؤيتها كمنظر طبيعي قديم وليس كموطن للفلسطينيين قبل تهجيرهم؛ تشكل تعبيرا لذلك"[٣١]؛ فالصورة العامة المنقولة للإسرائيليين نابعة من الرواية الصهيونية المهيمنة التى تزيف التاريخ والجغرافيا معاً.

وتوضح الدراسة التى أعدتها كدمان؛ أن التضييق على القرى الفلسطينية المهجرة وتاريخها أدى إلى التقليل من أهميتها الكبيرة في فهم الصراع لدى الإسرائيليين؛ حيث تقول: "وهذا بالتالي ترك انعكاسات سياسية آنية، فتجاهل ملابسات تفريغ القرى من سكانها الأصليين؛ من الزلزال الذي ضربهم عام ١٩٤٨ ومن نتائجه على اللاجئين حتى اليوم يحيد البعد الإنساني لحالة الفقدان الفلسطينية وينزعه من صورة الصراع بالنسبة للإسرائيليين"[٣٢]. ويتسبب ذلك، بحسب الدراسة، فى تسطيح الصراع

الفلسطيني- الإسرائيلي المركب في وعي الإسرائيليين؛ وفى نقل مركز الثقل من الثمن الشخصي الباهظ الذي سدده اللاجئون الفلسطينيون وما زالوا؛ وفى تعزيز نظرة شيطنتهم من قبل الإسرائيليين.

(٥) وفى قصيدة בשדות אשקלון (فى حقول أشكلون) التى نشرت فى صحيفة دافار فى نوفمبر ١٩٥٥، كتب الشاعر الإسرائيلى أفرايم تلمى عن حركة إحلال المستوطنات اليهودية محل البيوت الفلسطينية، ورسم لنا صورة من صور ترامى المستوطنات على أطراف المدينة؛ وذلك بعد مرور سبعة أعوام على هذه الحرب، فكتب يقول:

حماقة القيظ الكئيب

تهتز مثل الماحول[٣٣]

تأخذنا إلى آفاق بعيدة

حيث تترامى المستوطنات ملء السهل

والبيوت يغمرها ضوء النهار

وشجر السرو تحوطه الظلمه.

قرية مهجورة بدماء وثكل؛

وكرمة عنب تستريح فى الرمل

وشجرة جميز مقتلعة من الجذور

ونخلة وحيدة، عالية

إلى السماء الزرقاء فارعة

تتأمل باسطة كفيها

بين شذا ركام

"جبعوليم" والشجيرات؛ وتفسخ

الأوراق فى شجن الذبول؛

وأسى الخريف الرقيق

الذى يقرس القلوب

ليبقى الصمت هناك

ويتلاشى فى "أوراه"[٣٤].

إن أول ما يلفت النظر فى هذه القصيدة هو عنوانها (فى حقول أشكلون)؛ فقد آثر الشاعر الإسرائيلى أن يستخدم الاسم العبرى لمدينة عسقلان أو المجدل الفلسطينية قبل أن تطلق عليها إسرائيل "أشكلون"؛ وذلك على الرغم من أنه يتحدث عن المدينة الفلسطينية وهى تحترق وتتوارى؛ وتستبدل بالمستوطنات الإسرائيلية التى ترامت على أطرافها وعلى أنقاضها؛ كما يقول الشاعر.

ويشكل اليهود اليوم السواد الأعظم من سكان تلك المدينة، بعد تهجير أهلها العرب في هذه الحرب حيث انتقل الكثير منهم إلى قطاع غزة. وأقدمت بعدها المنظمات اليهودية المسلحة بعد احتلالها للمدينة في نوفمبر

١٩٤٨ على هدمها، وأقامت إسرائيل على أراضيها مدينة "أشكلون". ويعتبر الجامع الكبير الذى بناه "سيف الدين سلار" أحد إمراء المماليك عام ١٣٠٠؛ من أبرز أثار مدينة المجدل الفلسطينية.

ولا شك أن أغلب القرى الفلسطينية المهجرة تشيع فى المجتمع الإسرائيلى بأسماء معبرنة؛ وقد استخدمت إسرائيل تلك المسميات ووضعت الخرائط لها؛ لتهويد البلاد لا سيما وأن المواجهة على المسميات والخرائط؛ تشكل ساحة مهمة في الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، فيما يعكس استبدال أسماء المكان الانقلاب الديموغرافي الذي قامت به الصهيونية ومن بعدها إسرائيل في فلسطين.

وتشير دراسة الباحثة الإسرائيلية نوجا كدمان إلى أن "تغييب الأسماء العربية للمدن والقرى الفلسطينية يعد إصدار حكم بتأبيدها في مجاهيل النسيان؛ كما أشارت تلك الدراسة إلى وجود ٩٠٠٠ اسماً عربياً لأماكن في فلسطين اكتملت خلال ١٤٠٠ سنة- منذ الفتوحات العربية؛ فيما شكلت الأسماء العبرية ٥٪ فقط من أسماء المواقع في الخرائط الانتدابية للبلاد"[٣٥].

واستكمالاً لعملية التغييب، وصف تلمى "ترامى المستوطنات ملء السهل"؛ فاكتملت بها عمليات التفريغ ونجح المخطط، فلم لا تكتمل؟ وقد صارت "قرية مهجورة بدماء وثكل" أو بالأحرى تم تهجير سكانها

بسفك الدماء والتخريب. وقد صور الشاعر صور الخراب بجوار المستوطنات التى شرع الاحتلال الإسرائيلى فى بناءه؛ ليعطى لنا صورة للهدم والبناء فى آن واحد؛ حيث تشييد المستوطنات على أنقاض القرى والمدن الفلسطينية.

"لقد بدأ الشاعر قصيدته بوصف نموذجى للساحة الإسرائيلية الجديدة بعد الحرب. . . فمن وجهة نظر المتحدث فى هذه القصيدة فإن ما يعيب الاحتفال بهذه الأرض هو القرية المهجورة التى لم تذكر أبداً فى القصيدة؛ فغيابها يبرز والعكس؛ فلكى تمحى بشكل فاعل من الطبيعة المرسومة فى القصيدة فيجب تذكرها. لقد تطرق تلمى فى الحقيقة إلى المعاناة الفلسطينية التى وقعت؛ ولكنه من جانب آخر؛ لم يذكرها"[٣٦]. فها هى "كرمة عنب تستريح فى الرمل" و"شجرة جميز مقتلعة من جذورها"؛ بينما "بقت نخلة وحيدة فارعة" تبسط كفيها "إلى السماء فى تأمل" للخراب الذى لحق بالحقول التى تبدل "شذاها" بـ"رائحة الركام" للمستوطنات اليهودية الجديدة مثل مستوطنة "جبعوليم"؛ وهى مستوطنة تنتمى إلى سلسلة مستوطنات (هابوعيل همزراحى) بشمال النقب. و"ذابت الأوراق فى شجن الذبول" وأخذ "الخريف يقرس القلوب"، بينما دبت الحياة فى مستوطنة (أوراه)، وهى إحدى المستوطنات التى شيدها يهود اليمن عام ١٩٥٠ جنوب غرب القدس.

وهكـذا أخـذنا الشـاعر فـى رحلـة تصـويرية مـن خـلال صـورتين متجاورتين متناقضتين؛ صورة (الخراب) الذى لحق بالمدن الفلسـطينية التـى حط عليها الصـمت والـذبول عـام ١٩٤٨، وصـورة (الحيـاة) ودبيبهـا فـى المستوطنات اليهودية التى لاحت "فى الآفاق البعيدة" من المدينة الفلسطينية المفرغة.

ويمكن القول؛ إن الفكرة الرئيسة للقصائد السابقة تكمـن فـى نقطـتين رئيستين وهما:

(أ) تغييب المدن الفلسطينية وعـدم ذكـر أسماءهـا العربيـة فيمـا يشـبه الاتفاق بين الشعراء على هذا التغييـب الـذى يعبـث فـى الواقـع التاريخى والجغرافى لهذه المدن والقرى الفلسطينية.

(ب) التعاطف الإنسانى الذى بدا فى هذه القصائد التى هزت وجـدان عشاق الكلمة والحـرف، وأشـعلت فـيهم الحمـاس والعواطـف وأججتها، وفجرّت فيهم ينابيع الشعر وأمدتهم بطاقة الابـداع؛ لا سيما وأن أغلب الشـعراء شـاركوا فـى غمـار هـذه الحـرب؛ فانطلقت قصائدهم الصاخبة والغاضـبة لتتجـاوب مـع الضـمير والنبض الشعرى. ولكـن مـن الغريـب أن هـذا التعـاطف كـان موجهاً للطبيعة الفلسطينية فحسب.

(٦) وفي قصيدة "אדם בחתאם אמר" "قال في الختام" التي نشرتها مجلة (مأفاك) العدد "٨٢"؛ بتاريخ ١٣/ ١١/ ١٩٥٣، لأبو تمام تطل إحدى المدن الفلسطينية التي طالتها يد التخريب والتفريغ، حيث يستهل الشاعر قصيدته بوصف المدينة فى الماضى وما كان بها من بساتين تعطي من أطيب ثمارها، وفجأة حط عليها الخراب، ولم يكن من ناج سوى الشاعر نفسه فهو الشاهد الذي بقي حياً يروي ما حصل بقوله:

شيء ما خيم على الأرض وقطف
أجود أطايبها مرتين. هؤلاء أيديهم
مطلقة العنان فى كل الحكايا
الكل ضاع، وبقيت أنا فقط؛
والحوائط . والنباتات المتسلقة فوق السقوف
أذبلتها الرياح التي هبت في غير آوانها
في أوقات تتجول فيها قطعان الموت
فى مكان ترعى فيه القبائل؛
فروا فرادى، وتعثروا،
حتى الشروق. وقد صارت البيوت خاوية.
أنا الوضيع ابن الأرذلين؛ فجأة صرت سيداً
لمملكة فقيرة، بلا وزير أو نبيل
أو إنسان. وانما فقط زقزقة العصافير
ونحيب أقفال تهشمت[٣٧]

يصف الشاعر هنا مشهدا من مشاهد الموت والدمار لإحدى القرى الفلسطينية، فهو الناجى الوحيد من هذا الخراب، فقد نجا من الموت وهو يهرع بين "الضحايا الفرادى" الهاربين من هول الموت فى كل مكان، فها هم "قطعان الموت" أو بالأحرى الجنود اليهود الذين شبههم بالقطيع الذى يسير يميناً ويساراً، ينفذ الأوامر بالقتل والإخلاء دون مناقشة، أملاً فى إقامة "مملكة إسرائيل" على أنقاض "بيوت خاوية" و"أقفال أبواب متهشمة"، تصدر أصوات "النحيب" بفعل الرياح.

وربما يتطابق ما جاء فى هذه القصيدة مع ما جاء فى شهادات الفلسطينيين الناجين من تلك الأحداث، حيث يروي الفلسطيني عبد الحميد الفرّان المولود في مدينة يافا سنة ١٩٤٨، بعضاً من تلك الأحداث في شهادته التي وردت ضمن هذه المجموعة الشعرية بالقول: "وُلدت سنة ١٩٤٨ في بيت والداي، الذي يقع في حي جباليا خلف السفارة الفرنسية، وعندما كنت طفلاً لم أبلغ الشهرين بعد، هرب والداي وأسرة أمي من مدينة يافا، حتى وصلنا إلى رام الله. وقصت لى جدتى ما حدث، فقالت؛ ما حدث كان فوضى، حيث سقط أناس في الطريق، وآخرون كانوا ظمأى، تدافعوا نحو بئر مياه في قرية "جمزو" في الطريق إلى رام الله. لقد ذعُر الناس مما جرى في قرية دير ياسين، وقالوا هيا نهرب وننقذ أنفسنا ونسائنا، وشرفنا، فقد أرادوا أولاً أن تهرب النساء، لذا بقى العمان مع جدتي،

لأنها كانت عجوز، ولم يكن هناك احتمال أن يضرها الجنود اليهود، وأما أمي وأختها فقد كانتا في ريعان شبابهما؛ لذا هربا مع الفارين، حيث إنّ كل من كان في بيته نساء شابات سارع بالهرب. وفضل الناس أن يتركوا أموالهم وكل ما يملكون؛ فقط من أجل الحفاظ على شرف نسائهم. وفي الطريق سمعوا عن مذبحة مسجد "دهمش" في اللد، فعلى الرغم من قدسية هذا المكان فإن الكثير قتل بداخله. لقد كان الجنود اليهود منتشرون في الطرقات، يأخذوا من الناس أموالهم ومن النساء ذهبهن، ومات الكثير من البشر في الطريق. هذا ما روته لى جدتي؛ رحل الكل وتركوا كل شيء ورائهم في البيوت، وفي النهاية فقدوا البيت والممتلكات، وسكن يهود جدد في بيتنا"[٣٨].

(٧) وفى نفس السياق تطالعنا الشاعرة الإسرائيلية تسفريرا جربر بقصيدة ערים וגבעות "مدن وتلال" التى نشرتها صحيفة "عل همشمار" في مايو ١٩٥٠، تصف فيها مدينة "أريحا" الفلسطينية وقد أهلكتها العواصف والرياح، رياح الدمار والتفريغ.

تعد أريحا مدينة فلسطينية تاريخية قديمة تقع علي الضفة الغربية بالقرب من نهر الأردن وعند شمال البحر الميت، والتي يعود تاريخها إلى عشرة آلاف سنة قبل الميلاد. وهي عاصمة محافظة أريحا ومن أقدم المدن في التاريخ . وفي عام ١٩٩٤ أستلمت السطلة الوطنية الفلسطينية إدارة المدينة

من الحكومة الإسرائيلية. كما تعتبر مدينة أريحا أخفض منطقة في العالم، وتُعرف أيضا باسم "مدينة القمر". كانت مدينة أريحا القديمة مبنية من الطوب اللبن وكان حولها خندق عرضه ٢٨ قدم وعمقه ٨ قدم ومنحوت من الصخر.

وهى الصفات التى نجدها فى جزء من هذه القصيدة الذى جاء بعنوان "גבעה צהובה" "هضبة صفراء"؛ تقول فيها جربر:

تلك الغامضة

المُلتوية

ها هى تهزها الرياح و تهلكها العواصف

تتمايل مع المطر،

تحترق وجنتيها فى حمرة الشمس؛

تلك الهضبة الحدباء

المهجورة

المنخفضة

المكتسية بالخضرة النضرة،

تكشف عن كل ما هو مقيت وهدام،

فلم تعد تتعقب آثار القمر

وقد صال على ظهرها الجياع[٣٩].

هكـذا وصـفت الشـاعرة الإسـرائيلية أريحـا، وقـد طالتهـا يـد الغـدر والدمار، لقد كشفت تلك المدينة "المنخفضة"؛ وهـى أخفـض منطقـة فـى العالم، عن الوجه الحقيقى للجنود اليهود الذين دمروها، كشفت عن "كل ما هو مقيت وهدام"، فلم تعد بفعل هؤلاء "مدينة القمـر" كمـا اشـتهرت بين المدن، وقد التهمها "الجياع" وقضوا فيها على الأخضر واليابس.

وتواصل الشاعرة الإسرائيلية الحديث عن هذه المدينة قائلة:

تلك الهضبة، الهضبة الصفراء
التي زينت الأشجار جوانبها
فنهضت.
مستخدمة مطرقة من الرمال؛
عليها قطعة من حديد،
ألة تصدر صفيرا
معلنة الهضبة مؤجرة
فالهضبة صخرية،
من كل ما هو مُقيت وهدام محمية
ستهب الريح ،
وينشق القمر.
ليترك بصمة عميقة،
خدوش في الأرض والرمال.
حول المنازل،

حول الوادي،
يدور ويطوف؛ ربما؛
سبع مرات – حول سور أريحا.
دوران بكامل طاقته[٤٠].

ربما نلاحظ هنا ثقة الشاعرة الإسرائيلية فى هذه المدينة التى طالتها خطط التفريغ والتغييب إبان حرب ١٩٤٨، فهى مدينة "صخرية" و"محمية" من "كل ما هو مُقيت وهدام"، فقد يتمتع بها اليهود زمنا من الأزمان فهى "مؤجرة" دون دفع الثمن. وبالفعل عادت المدينة للفلسطينيين عام ١٩٩٤ ضمن اتفاق مع الحكومة الإسرائيلية؛ "فانشق القمر" و"هبت الريح" وعادت "مدينة القمر" مرة أخرى للفلسطينيين، والعجيب أن هذه الشاعرة هالها ما حدث لتلك المدينة الجميلة ففزعت لهول ما رأت وحملت كلماتها نوعاً من عدم الرضا وتمنت أن تعود تلك المدينة لسابق عهدها فهى حليف القمر والصخور التى تحيط بها من كل جانب، تلك الصخور الأبية على الانهيار والدمار.

(٨) وفى قصيدة مؤثرة تحت عنوان "פינה בצפת" "زاوية في صفد" نشرتها صحيفة "دافار" بتاريخ ١٥/ ١٠/ ١٩٥٤، وصف الشاعر الإسرائيلي "أفرايم تلمي" ما لحق بمدينة "صفد" الفلسطينية من تدمير وتخريب لكل معالمها أثناء حرب ١٩٤٨؛ لكي تسهل مهمة تهويدها وفق طراز يهودي خالص، حيث يقول فيها:

قوافل من القش والتبن
واسقف خشبية محرقة
وأكوام من الحجر.
حفر، وآبار، وأجساد مترامية
ليس هناك من بيت سالم
ولا شارع من الشوارع
فالكل يتهاوى ويسقط منهاراً.
ومنظر جبال يفيض بالشموخ
وزرقة سماء تخرق السحاب
ودم رائق، شديد العتمة
جياش، يسيل بعيداً.
أه يا مدينة صفد، مدينة السر
والغموض والترتيلة!
ما أكثرك خراباً وشياطيناً!
ما أكثرك شوكاً وحسكاً[٤١].

هكذا يرسم لنا الشاعر الإسرائيلى مشهداً من مشاهد الخراب والحطام الذى لحق بمدينة صفد الفلسطينية التى تعتبر واحدة من أكثر مدن البلاد إرتفاعا عن سطح البحر بحوالي تسعمائة متر فوق سطح البحر. وتقع على بعد ١٣٤ كم شمال القدس وتطل على بحيرة طبريا ومرج بيسان الواقعين إلى الجنوب الشرقي منها وعلى جبل الجرمق إلى الغرب.

لم تسلم هذه المدينة الساحرة من آيادى التخريب اليهودية التى جعلتها "أكوام من الحجر" . و "ليس هناك من بيت سالم" من بيوتات هذه المدينة "فالكل يتهاوى ويسقط منهاراً" كما قال الشاعر فى قصيدته. ورغم بلاغة الكلمات التى أتى بها الشاعر؛ فإنه لم يشر إلى الفاعل صانع هذه المجازر وبطل هذا التخريب شأنه شأن الكثير من الشعراء الذين ينعون الحجر والبشر دون إشارة إلى الجانى وكأن "الأجساد المترامية" و "الدم المسال شديد العتمة" كما قال الشاعر؛ وهو شديد العتمة من فرط ما سال من دماء ظلت أيام وأيام فى الشوارع، كأنها حدثت قضاء وقدر. إنه ينعى الإنسانية فى هذه القصيدة، الذى انهار أمامها جبل الجرمق الذى "يفيض بالشموخ" ويصرخ من فرط الدماء والخراب؛ مثلما صرخ الشاعر "أه يا صفد" ، يتوجع وهو الجانى، يصرخ وهو المحدث للألم، يندهش للخراب و "الشياطين" التى تملؤها، دون أن يشير إلى هوية هؤلاء الشياطين الذين أكثروا بها "الشوك والحسك" ، وهى كلمات مقدسة مستمدة من العهد القديم، تضفى قدسية على هذه المدينة التى ذُكرت في الأدبيات الدينية اليهودية وعند المؤرخين الرومان، ومنذ القرن السادس عشر، ومع طرد اليهود من شبه جزيرة إيبيريا وسقوط الأندلس، نشأ فيها مجتمع من اليهود السفارديم وأتباع الكابالا تحديدا مما جعلها أحد المدن المقدسة الاربع لدى اليهودية في تلك الفترة. إنه يتحسر على تلك المدينة المقدسة، دون أن يرثى صنيع أقرانه وكأنه ينعى الجماد المدمر ولا ينعى البشر المهّجر.

(٩) وفي صورة أخرى من صور التفريغ التي طالت القرى الفلسطينية، يطالعنا الشاعر الإسرائيلي ألكسندر فان بقصيدة כפר שדוד "قرية منهوبة"، التي نشرتها صحيفة "كول هاعام" بتاريخ ١٥/٨/١٩٥٨ يصور فيها مشاهد الدمار والنهب التي تعرضت لها:

من هنا مر الدخان؛
وقضت النار أمرها؛
على بيت فقير وقديم
وعلى عزه الفريد،
من صخر وطير لا حصر لها؛
ومن خير وفير لمحصود العنب؛
وعلى كل ما قد أينع حصاده؛
وتتذكره الحوائط والحجر .
فعلى سياج الغوث
يتنهد أنينًا على حطام البيت،
الذي يشبه رايات المحرقة
لقد هب الحريق
ليلتهم كل موطىء قدم
بل وتخطى الغابات
وحل في أرض ليست له
وقد بلغ الصوت منتهاه.

فراحيل[٤٢] لم تشكو أبناءها بمرارة
فيا أيتها الأرض، أيتها الأرض،
هذه هاجر تبكي أبناءها![٤٣].

يبدأ الشاعر قصيدته بحديث عن النار التى أتت أكلها وقضت على "البيت والصخر والطير"؛ وكعادة الشعراء الإسرائيليين لم يشر الشاعر هنا إلى الجانى وكأن النار أضرمت بدون فعل فاعل. لقد كان المشهد كما صوره الشاعر مخزياً ومؤلماً جعل الحجر ينطق من هول الدمار والخراب الذى لحق بهذه القرية؛ التى لم يذكر اسمها فى هذه القصيدة، حتى أن السياج الحجرى "تنهد أنيناً وحزناً" على حطام البيوت. ورغم هذه التعبيرات الجميلة والمعبرة عن الوضع، فإننا نلاحظ أن الجغرافيا الفلسطينية فى مثل هذه القصائد هى البطل الحقيقى الذى يؤلم الشاعر، فلم نرى حديثاً عن أناس فقدوا بيوتهم ووطنهم إلا فى القليل من هذه المجموعة الشعرية التى تؤرخ لموضوع النكبة، وهو ما نلاحظه فى البيت الأخير من هذه القصيدة عندما صرخ الشاعر قائلاً إن "هاجر تبكى أبناءها" الذين لقوا حتفهم فى هذه الحرب.

(١٠) وعلى أنقاض البيوت الفلسطينية المهدمة والقرى الفلسطينية التى سويت بالأرض تغنى بعض الشعراء الإسرائيليين بالإنجاز العظيم الذى تحقق على أجساد مترامية وحقول وجنان فلسطينية مدمرة؛ حيث يطالعنا الشاعر الإسرائيلي "مردخاي شاؤول" في قصيدته שירת עצמאות

"أنشودة الاستقلال" التي نشرتها صحيفة "كول هاعام" (صوت الشعب) بتاريخ ١٦/ ٣/ ١٩٥١ بمظاهر الفرح والسرور بإقامة الدولة:

المؤلف لا يبتغي جائزة
من وزير الدفاع؛
فهذه أنشودة للشعب
ليقيم عهده؛
أنشدي يا إسرائيل قصيدة الاستقلال
أبناؤك غناها لك ، فخراً لغلمانهم
وكبرياء
فدماؤهم عيد ومطر؛
فى كل شبر
في جلبوع، والنقب،
يا مرحى، إنه الاستقلال!(٤٤).

هكذا حول الشاعر الجانى إلى ضحية فى هذه الأبيات؛ وكأنهم كانوا يحررون وطناً مغتصباً؛ "فالدماء اليهودية" التى أسيلت على هذه الأرض كان ثمنها "الوطن" و"الاستقلال"، ذلك الوطن الذى أقيم على أنقاض وطن آخر. ويواصل هذا الشاعر التغنى بتحقيق مطمح الصهيونية الكبير بإقامة الدولة فقد نجحوا فى بناء الوطن المزعوم، بينما فشل "الأمراء" العرب أمام "دبابات اليانكى" و"مدافع البيون"؛ تلك الدبابات التى اغتصبت وطناً بأكمله، وقد قابل الشاعر فى هذه القصيدة مشاهد "الدمار

والدبابات والمدافع " بـ" السرور والمرح والغناء " احتفالاً "بعيد الاستقلال" وكأنهم كانوا محتلوا ونالوا "حريتهم" كما قال الشاعر فى هذه القصيدة :

قلوبهم سور يحيط بجبل صهيون
ضد معاشر الأمراء و خطاهم الشجاعة ؛
وقد انكفئ الفشل
من سلاحهم الوفي الذي أنقذهم :
بندقية جيكية
مقابل دبابات اليانكي ومدافع البيون
يا مرحى ، فهذا جبل صهيون
وها هىإسرائيل ؛ تنشد قصيدة الاستقلال
بيد من فولاذ .
حريتك هكذا تقوم : الكد هو السيد
إنها في الوطن
وفي الخارج صامدة[٤٥] .

وينهى الشاعر قصيدته بالاعتراف بأن مغتصبى هذه الأرض كانوا "أذلاء" يعيشون فى "الظلام" فى إشارة إلى غياهب الرجعية والتخلف والحياة اليهودية الجامدة التى كان يحياها اليهود فى أحياء "الجيتو" أو المناطق الانعزالية التى كان يعيش فيها اليهود فى شرق أوربا وغربها ، فهاهم الآن يتغنون بالحرية والانعتاق :

يا مرحى بالاستقلال!
نقسم، يا إسرائيل: ليس عبثاً! هذا الشعب
الذي شاهد جيلاً بعد جيل وعالماً ينهض
من الظلام
معلناً عن عبد ليس ذليلاً!
والبرج في مرتقى الجبل
في سلام، حقل حاصلات وفخر الانسان
يا مرحى، فهذا هو الشعب![٤٦].

(١١) ويطالعنا الشاعر مردخاي أفي شاؤول بقصيدة أخرى طويلة، ראש חודש מאי "مطلع شهر مايو" والتى نشرتها صحيفة (كول هاعام) الإسرائيلية بتاريخ ٣٠/ ٤/ ١٩٥٢، يصف فيها رياح شهر مايو الذي حلت على "إسرائيل" بعيد جديد، معلنة عن "قيام الدولة":

هبي، وانثري يا رياح مايو
الضباب من عينيّ؛
لأرى في النور نحلة العسل؛
وأسمع ترانيم حصاد جديد!.
اشحذي نصل المنجل
وأعزفي أنشودة الطل!.
ويا أيها البراعم، انتم شهودي
فحلول شهر مايو رونق حقولي.

هبيّ، وجففي يا رياح مايو؛
كل الدموع في خيامي؛
واكسحي كل الحارات.
أنفحي رائحة الحقول!
فكل الضواحى راقصة
إنّه عيد خروجهم من أسر الأمس[٤٧].

ولعلنا نلاحظ فى الأبيات السابقة تأكيد هذا الشاعر على بعض شعارات الحركة الصهيونية ورفع لواء العمل، "فنصل المنجل" ومناحل "العسل" و"الحقول" التى شيدت تشير إلى الصهيونية العملية من ناحية، وإلى تشدق الرواد الحركة الصهيونية بأنهم جاءوا لتعبيد الأرض الجدباء ونشر الحقول والمزارع من ناحية أخرى. وهو أمر يناقض الحقيقة تماماً لاسيما وقد تباكى بعض الشعراء العبريين فى القصائد السابقة على الحقول الفلسطينية والجنان والكروم والقرى التى سويت بالأرض. لقد جاءوا من التشتت و"أسر الأمس" كما اعترف الشاعر، ليشتتوا غيرهم ويأسروهم فى بلاد ليست بلادهم.

ويواصل الشاعر كلماته فى هذه القصيدة وهو يدعو "الحجر والبشر والرياح" ليكونوا شهوداً على صنيع الصهاينة: "نيران تتصاعد فى القرى" و"أم تحتضن ابنها" و"ودماء صامتة":

أيتها الضواحى أنتن شهودي

وباكورة شهر مايو هو رونق حقولي.
هبي، ثوري يا رياح مايو!
وكوني اختاً لكل شعوبي؛
ولكل متحرك وهائم؛ ما بين هوة وأخرى
يفكر كيف ينجو، بلا رحمة
بينما تتصاعد فى قريته النيران
لينتقم من المحتل.
أيها الشعوب إنكم شهودي
وأول شهر مايو هو رونق حقولي.
هبي، وأحكى أنت يا رياح مايو:
عن عقبات شعب حي؛
وخيلاء بطل ماضيه معدم؛
تحت سوط دماء سيصمت؛
وعن ام تحتضن ابناً واهناً
وهى تقبض على نيران بندقية!
أيها المقاتلون أنتم شهودي
باكورة شهر مايو هو رونق حقولي[٤٨].

وهكذا حل رونق الحقول مع رياح شهر مايو، الذى أعلن فيه عن قيام الدولة، وعن "انعتاق شعب ذليل" ستعزه "تلك الرياح" كما اعترف الشاعر، رياح البناء والتعمير لوطن على أنقاض وطن آخر:

هبي، وبشري أنت يا رياح مايو؛
باركى البناء؛
كجدار للانعتاق؛
إنه شعب ذليل سيؤثر نوراً.
هبي على وجه كل الحدود
فبك سيعز كل يوم .
أيها البناؤون انتم شهودي
باكورة شهر مايو رونق حقولي.
هبي، ورنمي أنت يا رياح مايو؛
حطمي سكينة كل من يقاطعني!
أنشدى عظمة المطرقة
صوت عطلة السبت – نداء القتال
ضد سجين عالم متعفن.
أيها العمال أنتم شهودي
باكورة شهر مايو رونق حقولي.
هبي، يا رياح مايو
واشعلي عيداً على نغمة دمائي
وأذكي النار في الأعلام. . . ؛
فيا بحر الأعلام أنتم شهودي
وباكورة شهر مايو رونق حقولي[٤٩].

(١٢) وفي قصيدة أخرى تعبر عن الفخر بالاستيطان اليهودي على أرض فلسطين يطالعنا الشاعر الإسرائيلي ش. شالوم[٥٠] بقصيدته יום חדש "يوم جديد"، والتي ضمت أكثر من ١٩٠ بيتاً من الشعر، ألهب خلالها حماس اليهود بعبارات وجمل مؤثرة، للاستمرار في عملية بناء المستوطنات فى كل مكان؛ بعد انتهاء عمليات التخريب والدمار التى طالت الأرض العربية:

شيّد وأسس رؤية الشعب؛
ليوم جديد طَلَت بشائره على البحر؛
من مرتفعات الجولان، وجمال دان وايلات؛
التى استفاقت من نومها العميق على ميراث
الأجيال المنسية؛ من جبل الشيخ حتى إسرائيل
لقد طل نور الصباح على دولة إسرائيل[٥١].

بدأ الشاعر قصيدته الحماسية بالحديث عن المدن العربية التى احتلتها فى هذه الحرب، تلك المدن التى "استفاقت من نومها العميق على ميراث الأجيال" الذى تحرر من أيدى العرب؛ إنه الميراث الموعود من قبل الرب إلههم، لقد تشتتوا آلاف السنين حتى استفاقوا على صباح "يوم جديد" يحمل لهم "المستقبل الموعود". والغريب فى الأمر أنه تغنى بمدن عربية ذكر أسماءها فى هذه القصيدة مثل "عكا وصفد ورأس الناقورة" فى تحد واضح وسافر، ربما إيماناً منه بأن هذه الأرض تقع ضمن نطاق الوعد الالهى

لليهود الذى تشدقت به الصهيونية، وربما أملاً فى مستقبل مشرق للعبد الذليل الذى أصبح سيداً ؛ يدعو كل الأذلاء أقرانه بترك حياة العبودية والهجرة إلى بلاد المستقبل الموعود:

بينما هم سائرون، قالوا قم، هاجر إلى الكرمل
حملق بعينيك اليمنى واليسرى،
في مدينة المستقبل، و المرسى، و السفن
في الرافعات والأبراج، و أعلام الدول؛
في السقوف، والقباب، والحواجز الخرسانية.
انظر إلى نسر يسكن عكا في الشمال؛
انظر إلى رأس الناقورة! أمعن النظر
إلى مدينة صفد ذات الجبال الرقيقة،
سر على الدرب، المُعَبَّد بأجسادهم،
لقد توقفت رحلة أبناء الملوك هنا.
تسلق الصخور الصلدة، واقترب
من مدينة المدن، أسيرة القلوب
واطرق البوابة بقوة وأطلق النداء:
قومي يا قدس، وانظري المعجزة
قومي ياقدس، من حصنك، وجوعك
ها هم أبناؤك؛ حطموا قيودكِ في الحرب؛
جففى دموعك في مرج البحر

فالشمس تشرق هناك، متوهجة وملتهبة
إنها شمس إسرائيل الجديدة، و الكبيرة.
افيقى يا قدس، وانشدى
املأى الآفاق وغيري الواقع
من مدينة الآباء إلى ضاحية الأبناء،
اجعلي لقلبك وعمرك متسعًا من الهدوء،
بعد صخب العمل، وضجيج الفولاذ
فالورش في المداخل والميادين وعلى الأرصفة
إنها روعة العصور القديمة في تل أبيب.
تجول في الشوارع والأسواق ولا تيأس،
فالخير وفير وكثير
فى المدينة العظيمة التي خلقت من العدم
لشعب السيوف المنتصر، والقادر
على تقرير مصيره،
وبارك الأيدي التي شاركت في البناء[٥٢]!

ويمضى الشاعر فى الترويج لهذا الإنجاز العظيم الذى تحقق على أنقاض شعب آخر:

هذا بيت صانع المجد للأمة
هذا منبع الخير، وبيت الكرم
هذه دولة طورت من تقاليدها القديمة.

ألحق بطابور الآلاف التي هبت
من كل صوب، تعرف هناك على
المغمورين السائرون فى الصباح إلى الشاطئ
دموعهم على الأعين تقول إنهم بخير
أو ربما دموع جفت عند الرحيل
للقاء الأحبة[٥٣].

ويواصل شالوم دعوة اليهود للهجرة إلى فلسطين بقوله :

أسرِع من خطواتك لتلحق بجيش العمل
فمئات الآلاف مُحيَت تماماً؛
لا تنظر إلى وجوههم، وأعينهم؛
وخذ أغراضك واذهب
مع الكثير من شركات النقل، والشحن،
مع العربات التي تحمل المقهورين
إلى الجليل أوالنقب، الاردن أو ساحل البحر
إلى الطبيعة الخلابة؛ التي تشتاق إليها
إلى قلب البلد، إلى سيدة الأرض
واستنشق بشدة رحيق الجنان؛
من شجرة التين القديمة، خذ من ثمارها قطفة؛
تلمس الزيتون الطازج، ولطف جفونك
بنبات الكَروم والشتلات الجميلة؛

ارتشف من كأسه نبيذاً
ثم تنفس الرائحة العذبة لشفتاك
امض إلى حقول الحنطة الشاسعة، والمباركة،
واجعل كل النفوس مليئة بالأمل؛

ويواصل الشاعر القول:

لقد أُقفر حديدها منذ ألفي عام
ألفي عام انتَظَرت عودتك؛
فلا تخجل من فلاحة الأرض؛
لا تخجل، انهض وامض في هذا اليوم العظيم
إلى الفناء، وروعة الزراعة في الصوبات
بالكيبوتس، والكيبوتساه، و الموشاف، والموشافاه
واطرق بقدميك جمرة اللهب،
وأدعوا كل شاب، كل نفس
ليغني وصايا "عيد الشكر"
يستمتعون، يرقصون على الرمال(٥٤).

ويواصل الشاعر وصاياه بالحفاظ على هذه الأرض؛ مدعياً أنها ملك الجموع اليهودية، فما تحقق، إنجاز "لم يتنبأ به الأنبياء" فقد "أشرقت الشمس" و "أفل القمر" وتحقق "الحلم الذهبى" كما يقول فى الأبيات التالية:

احفظ هذه الأرض- إنها لك!
احفظ دولة إسرائيل من كل شر
احفظ استقلالها، وأرضها وسمائها
اجعلها جميلة وكبيرة ومباركة.
حياة جديدة، يعمها السلام
في دولة إسرائيل
وفترات زهوها،
فما رأيناه - لم يتنبأ به الأنبياء.
ها هي الشمس تشرق بعد أن أفل القمر
فأخفى الرمال،
على السهول البحرية، ومجرى نهر الاردن
وبحيرة طبريا، وأعالي البحار، وجبل الشيخ
بقممه البيضاء، والبحر الأعظم،
نهر مصر، والنقب، والبحر الأحمر
وهكذا تدور الدائرة.
الحلم الذهبي، صار أمراً ملموساً
يحكي صلابة إسرائيل وانتصارها الأبدي
في دروب المنفى، والظلام الطويل،
حملناه صامدون ومن أجله ذللنا،
بشذرات الثلج، ونار الحرائق
بالأيدي القذرة والنجسة واللعينة

بضيق نفس، وبلا فكر.
مبارك الذي أحيانا وأعادنا بمعجزة!
لمن علمني المحافظة، وعلمني الصلاة
تحسبًا لهذا الوقت العصيب
لمن علمني أن أغرس في شعبي قوة طاهرة[٥٥].

(١٣) في محاولة لتجميل الوضع القبيح الذى حل بالمدن الفلسطينية من تدمير وتخريب؛ تطالعنا الشاعرة الإسرائيلية تسفريرا جربر في الجزء الأول من قصيدتها الطويلة "مدن وتلال" "ערים וגבעות" والتى نشرت فى صحيفة "عل همشمار" في ٥/ ٥/ ١٩٥٠، تصف فيها "جربر" مدينة "يافا" الفلسطينية، التي طالها مسلسل التفريغ بحلة جديدة ترامت المستوطنات وانتشرت فيها:

عند مدخل المدينة الجديدة
بنى سجن
للحبس الاحتياطي
ومربض للكلاب.
ها هى الأبواق تدق
فى يافا
تلك المدينة المتقدمة
التي يفوح منها رائحة الأسمنت اللين.
وفي الساحة المستديرة

تحوم أسراب الحمام على البئر؛
بئر مهجور؛
ومن فوقهم أسراب على شكل قوس؛
مدينة متجددة؛
تنمو على أنقاض الماضي؛
فالوطن المشيّد؛
على دعائم متينة؛ ينهض ويقوم.
ذلك الوطن
ذو الأحجبة الجديدة زرقاء اللون
التى تغطى عماه(٥٦).

تصف جربر مدينة يافا الجديدة التى تحتوي على كل مرافق الحياة، من سجن ومرابض لكلاب الحراسة ضد المعتدين؛ وهذا هو حال المعتدى الذى يغتصب البيوت والأرض ويعد لأصحابها السجن ويحرس ما اغتصب. لقد حاولت الشاعرة هنا قلب الحقائق والجهر بأن يافا أصبحت "مدينة متجددة" بُنيت على أنقاض المدينة القديمة التى عششت فيها "أسراب الطيور" فوق "البئر المهجور"، أو بالأحرى البئر الذى أرغم أهله على هجره.

إنها محاولة لتسويق إحدى نظريات الصهيونية الباطلة؛ والتى تقول إن اليهود جاءوا إلى فلسطين لتمهيد الأرض وتعميرها وتحويلها من خراب إلى عمار؛ وهى نظرية باطلة تفندها العديد من القصائد التى كتبها الشعراء

العبريون أنفسهم والتى تغنوا فيها بالجنان والأرض الفسطينية والطبيعة الخلابة، وعلنا نذكر الأعمال العبرية التى تغنت بأرض فلسطين وطبيعتها الساحرة؛ صحيح أنها كانت لجذب جموع اليهود للهجرة إلى فلسطين، ولكنها كانت خير دليل على أن الأرض كانت عامرة بأصحابها وخضرتها وطبيعتها.

(١٤) ويطالعنا الشاعر "دافيد أفيدان"[٥٧]، بقصيدة ההתנחלות "الإستيطان"، والتي يزهو فيها الشاعر بالإستيطان اليهودي في فلسطين، ويحلم بالامتداد به إلى قمة جبل سيناء تلك "البقعة المقدسة" من أرض مصر:

من فوق قمة جبل سيناء
بأيدي قواتنا؛
وبدون خسائر؛
رأيت السحاب
يتمدد على ظهره؛
يرتشف القهوة
في خيمة بدوي.
أرغب الموت فوق السحاب
أموت فوق سحابة الجبل
على قمة جبل سيناء بأيدي قواتنا
وبأيدي قواتنا مصاب واحد[٥٨].

هكـذا يـدعوا الشـاعر في قصـيدته الجمـوع اليهوديـة إلى التوجـه نحـو فلسطين، والإستيطان فيها، فما تحقق من نصر في ١٩٤٨ يعد بداية لتحقيـق هذف الصهيونية بإقامة وطن كبير لليهود قد يمتد إلى جبل سيناء فى مصـر. وقد صور الشاعر حالة لقاءه مع قمة الجبل منتشياً بفرحة النصر حيث تلاقي سُحب السماء مع قمة الجبل وهو ما تحقق "بأيدي قواتنا"، إنه يبرزالعلاقـة بين البطل والطبيعة، والتحاور بينهما من خلال إبراز جانـب مـن الجوانـب التي تتعلق بمسألة الصراع العربي الإسرائيلي، وتصوير الصراع على إنه مـع الطبيعة فى محاولة لتغييب العرب وتهميشهم، وهو ما يتضـح مـن الصـورة النمطية للعرب التى أشاعها الأدب العـبرى بصـفة خاصـة فـى العديـد مـن الأعمـال الأدبيـة التـى تصـور العـرب علـى أنهـم مجموعـة مـن "البـدو" و"ساكنى الخيام" كما ذكر الشاعر فى قصيدته.

(١٥) وفى قصيدة לפעמים אתה מרים פטיש "أحياناً ترفع الفأس" للشاعر الإسرائيلي أمير جلبوع والتى جمع فيها كل المتناقضات مـن "عنـف وقتل وبارود" فى مقابل "النور والبسمة والفرح"؛ تبدو الدعوة للهجرة إلى فلسطين والإستيطان فيهـا واضـحة، فـالحلم لابـد وأن يتحقـق مهمـا كـان الثمن:

أشياء كثيرة تكمن فيها الرغبة؛
نعلو ونهبط فى كل المراحل

فليغلق الآخيرون الباب
ليفتحه الأوائل .
كل فكر مقبول ندرسه
ونزيح به التراب عن نور المشرق
فلنسير ونذهب و نصل
وعندالضرورة نفجر برميل بارود
فلنغني ونبني ؛ لنرى بأعيننا
كيف نشيد البيوت والحدائق والآبار ؛
ولنشاهد كيف تنتصب أمام أعيننا .
فلنتخاصم ونفرح فيما بيننا
ونزرع الزهور وسط الصخور
وننشر البسمة على المباني التي ستعيد
كل الأشعار التي قيلت وستقال[٥٩] .

هكذا يروج الشاعر لحالة الإستقرار النفسي التي سوف يستشعرها اليهود في فلسطين، بعد نهاية فترة التجوال والترحال والمعاناة، فليتنحى "الآخيرون" من أجل "الأوائل" الجدد الذين سيواصلون المسير ؛ نحو "الاستيطان وبناء المستوطنات" وهو ما سيعيد البسمة إلى هذه الأرض التي غابوا عنها قرابة ٢٠٠٠ عام كما يزعم الشاعر، في إشارة إلى أن الأرض لا تزدهر ولا تنعم إلا بعودة اليهود إليها . حتى ولو أدى الأمر إلى استخدام القوة المسلحة ؛ "فإذا دعت الضرورة سنفجر برميل بارود" فبها يتم القضاء

على سكان فلسطين العرب، وطردهم منها لتكون مهيئة لاستقبال اليهود المهاجرين إليها، بعد محو كل معالم القرى والمدن الفلسطينية.

وهكذا صور الشاعر أمير جلبوع في قصيدته "أحياناً تُرفع الفأس"، صورة من صور الألم والمعاناة التي عاشها الفلسطينيون، فى ظل الدعوة إلى مزيد من موجات الهجرة اليهودية إلى فلسطين.

الفصل الثاني

الممارسات والجرائم الأخلاقية للجنود الإسرائيليين

الممارسات والجرائم الأخلاقية للجنود الإسرائيليين:

قامت المليشيات اليهودية المسلحة بتهجير أكثر من مليون فلسطيني تقريباً؛ فأجبروهم خلال أحداث النكبة على الخروج من منازلهم ومدنهم وقراهم، حيث سلبت أراضيهم وأملاكهم ومقتنياتهم وصاروا لاجئين بلا وطن أو مآوى، وقد رحل أغلبهم إلى الأردن وقطاع غزة والضفة الغربية، بينما رحل الباقي إلى سوريا ولبنان.

لقد ارتبطت عمليات التهجير والاقتلاع الجماعي للفلسطينيين بالانتهاكات الخطيرة غير الإنسانية، حيث اقترن ذلك بممارسات وحشية غير أخلاقية عبر هجمات عسكرية مباشرة على الأماكن المأهولة بالمدنيين، وارتكاب المجازر، والنهب والسلب، وتدمير الممتلكات وقرى بأكملها؛ والتهجير القسري للسكان. ويمكن القول، إن مبادئ الحرب وأصولها وفنونها عند الإسرائيليين المعاصرين مستمدة من الإسرائيليين القدامى وتنعكس بدورها على ممارستهم الأخلاقية، فالرب لديهم إله محارب، يأمرهم بالقتل وسفك الدماء واحتلال الأرض وغير ذلك[٦٠].

وقد احتوت هذه المجموعة الشعرية؛ بالإضافة إلى القصائد؛ على الكثير من الشهادات الفلسطينية التى تؤكد على تلك الجرائم الإسرائيلية. وعلى سبيل المثال؛ يقول حسن العجو المولود عام ١٩٣٠ في اللد؛ فى شهادته الواردة بين صفحات هذه المجموعة الشعرية وتحت عنوان (قليل

جداً من المشاهد الطبيعية، كثير جداً من القتل): "بينما كنا نتجول للبحث عن طعام في البيوت التي هرب منها الناس؛ رأيت بعيني جثث رجال متورمة في الشارع؛ وامتلأت البيوت بعجائز متورمين وموتي... وفي الطريق إلي البيت؛ كانت الجثث ملقاة فى كل مكان. عندئذ ذهبنا إلي عائلة عجو في نهاية اللد؛ وبقينا هناك في الكروم شهراً تقريباً، بلا عمل، وبلا قمح أو شعير، بلا أي شيء. عبرنا البيوت التي تم اقتلاع الناس منها لنبحث عن طعام أو شراب ولكن بلا جدوى"[٦١].

(١) وقد احتوت هذه المجموعة الشعرية على بعض القصائد التى تناولت فظائع حرب ١٩٤٨ ضد الفلسطينيين؛ والممارسات غير الأخلاقية للجنود الإسرائيليين التى اقترفوها فى حق النساء والأطفال والشيوخ الفلسطينيين. ففى قصيدة بعنوان על זאת (على إثر ذلك) ـ نشرتها صحيفة هاآرتس فى نوفمبر ١٩٤٨ـ وأثارت جدلاً كبيراً بين النقاد الإسرائيليين؛ نقل لنا الشاعر الإسرائيلى المعروف ناتان ألترمان صورة من صور الجرائم الأخلاقية؛ التى ارتكبها الجنود الإسرائيليون لتنفيذ مخططات التفريغ والهدم ضد القرى والمدن الفلسطينية؛ حيث يقول:

فى المدينة المحتلة؛ صعد فوق إحدى العربات

صبى شجاع؛ بطل؛ مسلح؛

وفى الشارع المدمر

شيخ وامرأة

يقفان بجوار الحائط ؛

. . .

ابتسم الصبى فكشف عن أسنان بيضاء ؛ وقال :

سأجرب المدفع . . . وجرب

فقط غطى الشيخ وجهه بيديه

وغطت دماؤه الحائط . .

أيها الأعزاء . . . تلك مشهد من معارك الحرية

فهناك شجعان كثيرون ، وليس هذا بسر

فمعركتنا تقتضى التعبير والأغانى

حسناً . . فلننشد لها ؛ عن هذا .

ننشد لها ؛ حينئذ ؛ عن حالات حساسة

تسمى ، بالمناسبة ، قتل

فلننشد عن أحاديث السامعين المدركين

عن سخرية العفو والصفح .

وحشية تلك هى الحرب ؛ فالواعظ الورع

يعود منها بقوة

لكن . . إذاً

باسم الاستقامة والرحمة

ليس أكثر منها وحشية

فالهدوء الهامس إلى العدم "حقا" .

قد بدت ملامحه فى المرآة

جندى عبرى يقف مدافعاً

عن بلادة العبريين

وحرب الشعب واجهت بجسارة

الفيالق السبعة

لملوك الشرق؛

غير عاجزة؛ حافظة لـ" لا تخبروا فى جت" ؛

شجاعة جراء ذلك[٦٢] .

عبر ألترمان فى هذه القصيدة عن الجرائم الوحشية التى ارتكبها الجنود الإسرائيليون فى هذه الحرب. ومثلما يقول حيفر فى مقدمة هذه المجموعة الشعرية؛ فقد كتب ألترمان هذه القصيدة تعبيراً عن المذبحة التى وقعت فى مدينة اللد فى الثانى عشر من يوليو ١٩٤٨ ؛ والتى قامت بها كتائب البالماح ضد الفلسطينيين. ويرى حيفر فى هذه القصيدة أنها "تمثل خروجاً عن المألوف فى إخفاء الممارسات غير الأخلاقية للجنود اليهود. . . فقد كتبها بعد خمسة أشهر من المذبحة التى شهدتها مدينة اللد الفلسطينية فى إدانة واضحة ورفض قاطع لتلك المذبحة"[٦٣] .

ولكن ألترمان لم يعترف بمسئولية هذه الجرائم فى هذه القصيدة؛ حيث يرى أمير بنباجى أنها "تتحدث عن ظلم معين وقع فى حرب ١٩٤٨ . ومن جانب آخر؛ فهى تتعرض فى نهاية الحساب الى الرؤية الصهيونية؛ فهذه الرؤية ترفض الاعتراف بالمسئولية أى كانت تجاه النكبة الفلسطينية؛ وتجاه مشكلة اللاجئين المستمرة حتى وقتنا هذا"(٦٤).

وعل أول ما يلفت النظر فى هذه القصيدة هى بدايتها التى تصف مشهداً من مشاهد هذه المذبحة فى تلك "المدينة المحتلة"؛ وكأنه اعتراف صريح بالاحتلال، فقد "صعد صبى شجاع ومسلح" ـولم يقل جندياًـ على "عربة جيب" تقف فى أحد "الشوارع المدمرة"؛ وسمح له بالعبث فى المدفع ليجربه؛ فقتل "رجلاً مسناً" كان يقف بجوار زوجته "ليكتسى الحائط بدماءه". ويبين وجود ذلك الصبى؛ حالة الاستهتار بالبشر غير اليهود؛ فليس هناك فارق بين الجندى والصبى فى هذه الحالة؛ فالهدف واحد وهو التدمير.

ويؤكد ألترمان فى الجزء الثانى من القصيدة التى يمكن اعتبارها وثيقة عسكرية، على أن ذلك "مشهد من معارك الحرية"، الحرية التى تأتى بالجرائم غير الأخلاقية وعلى حساب قتل الآخرين، والتى يسميها جيشه بالشجاعة حيث هناك "شجعان كثيرون" سفكوا الدماء ومارسو أحط الأخلاق باسم "الحرية"؛ التى لكى تنعم بها فى تلك المعركة فعليك بسحق

الآخرين باسم الدين؛ كما يقول ألترمان؛ فـ"الواعظ الورع" يعود منها أكثر قوة وجسارة.

نعم اتسمت هذه الحرب بالوحشية حيث يقول: "وحشية تلك هى الحرب" و"ليس أكثر منها وحشية"؛ فقد مارس فيها الجنود الإسرائيليون كل أنواع العنف والجرائم باسم الدين؛ وكلهم ثقة بأن جرائمهم لن تكتشف "فلن يخبروا عنها فى جت"؛ كما يقول ألترمان فى نهاية القصيدة، لا سيما وقد استمدوا العبرة من مرثية داوود فى العهد القديم؛ التى رثى فيها شاؤول وابنه يوناثان فى الإصحاح الأول من سفر صموئيل الثانى، بعد أن قتله أحد العماليق فأخبر قومه بألا يحكوا عن تلك الهزيمة فى جت ولا فى ساحات أشكلون. وكذلك فالصمت واجب تجاه الجرائم الأخلاقية والممارسات اللا إنسانية. "لقد اتخذ ألترمان من الشعر وسيلة لمواصلة نقده اللاذع ضد سلوك الجنود الإسرائيليين؛ وحول هذه القصيدة الاحتجاجية إلى قصيدة وثائقية تسجل عمليات الطرد والتنكيل للمواطنين الفلسطينيين من قبل الجيش الإسرائيلى"[٦٥].

والغريب فى الأمر أن ألترمان كواحد من أشهر الشعراء العبريين؛ حيث يعد الشاعر العبري الصهيونى الأكبر بعد حاييم نحمان بياليك؛ يتحدث عن تلك الجرائم. ومع هذا؛ فهو يعرض في قصائده صوتا يهودياً صهيونياً، حتى وإن كان يتعاطف مع المعاناة الفلسطينية. إنه لا يستطيع محو

الحقيقة التى تقول، إنه الشاهد علي الصدمة وفي نفس الوقت هو صوت الشخص المسئول عنها. وهو ما يؤكد عليه حانان حيفر بقوله: "يبدو أن هذا التعاطف ينبع من جرح قديم لدى الشاعر؛ أو (جرح بديل)؛ وهو الجرح الذى ينبع من إدراك وفهم لمصير الآخر وشأنه. فهو هنا يرهن جرح الآخر بالجرح الخاص به. لا سيما وقد اكتوى به من قبل فى أحداث النازى؛ وكتب عنه فى (قصائد ضربات مصر)... ومن ناحية أخرى؛ فإن ألترمان يستعرض فى قصائده صوتاً يهودياً صهيونياً يتعاطف مع المعاناة الفلسطينية، ومع هذا فإنه لا يستطيع أن يمحو حقيقة أنه رفض العودة الفلسطينية. فقد اشتمل هذه الصوت الهجائى المسيطر فى قصائد (مدينة الحمامة)، على الصوت اليهودى الصهيونى الذى يصف من وجهة نظره أحداث الحرب. ولكن صاحب هذا الصوت؛ هو السبب الرئيس فى هروب الفلسطينيين وطردهم، وهو الذى هزمهم فى هذه الحرب. بمعنى أن الصوت الصاعد من (مدينة الحمامة)؛ أى الصوت الشاهد على الجرح؛ هو فى نفس الوقت الصوت المسئول عن حدوثه"[٦٦].

لقد كان ألترمان آنذاك فى خانة الشاعر "القومى" للكيان اليهودى على أرض فلسطين؛ حيث تحول بعد كتابة دواوينه الثلاثة (نجوم بالخارج ١٩٣٨؛ وسعادة الفقراء ١٩٤١؛ وقصائد ضربات مصر ١٩٤٤) إلى الصوت الرئيس فى الشعر العبرى آنذاك. وكان شعره يتميز بالصبغة

القومية الصهيونية؛ إلى أن كتب ديوانه (مدينة الحمامة) بعد عقد من إقامة الدولة، وتحدث فيه عن الهروب الجماعى للفلسطينيين؛ وتطرق إلى الجرح الفلسطينى فى قصيدة (حرب المدن)، ووصفه بالجرح الغائر؛ وبدا متعاطفاً معهم. ولكنه يعترض على الوضع الذى خلفته حرب ١٩٤٨ من وجهة نظر صهيونى.

ويصف الناقد الإسرائيلى ايلاى هيرش هذه القصيدة بأشعار البلاط التى تكتب من أجل السلطان أو الحاكم؛ حيث يقول: "لم يكتب ألترمان هذه القصيدة كواعظ؛ بل كشاعر بلاط يخدم السلطان، حيث تهدف هذه القصيدة إلى وضع خط فاصل بين جرائم الحرب التى نفذت من خلال تفاصيل ضالة على هامش المعارك؛ وبين السياسة الإسرائيلية الشاملة خلال هذه الحرب. وهى الرؤية التى دعمها الشاعر الإسرائيلى يتسحاق لاءور فى كتابه (نحن نكتبك أيها الوطن)، وفيه ذكر لاءور أنه ليس بالضرورة أن يكون هدف ألترمان توضيح الأمور والكشف عنها؛ بل طمس معالمها. ولأكثر دقة إفراد وتوضيح جرم معين شريطة؛ إخفاء جرائم كبيرة أخرى"[٦٧].

ويرى الناقد الإسرائيلى ايريز شفايتسر أن هذه القصيدة "تحتوى على خطاب مزدوج؛ فقد رفعت صوت الاحتجاج ضد المذابح التى اقترفها الجنود اليهود الشبان ضد العرب؛ وهى المذابح التى أبعدت وأخرست من

الحديث العام؛ وفى نفس الوقت فهى تتحدث عن حدث استثنائى يدعو فيه الى معاقبة الفرد لتطهير المعسكر كله "[٦٨].

(٢) وفى تعبير آخر عن الممارسات غير الأخلاقية التى قام بها الجنود الإسرائيليون فى هذ الحرب؛ عبر لنا الشاعر الإسرائيلى آريه لودفيج ستراوس عن تلك الفظائع التى لم تنجو منها الفتيات والنساء الفلسطينيات، فكتب قصيدته الطويلة יד פאטמה (يد فاطمة)؛ ليرثى فيها الفتاة الفلسطينية "فاطمة"، التى تعرضت للقتل والاغتصاب من قبل بعض الجنود الإسرائيليين؛ وكأنها مرثية يرثى فيها دولته التى قامت على أجساد وأنقاض شعب آخر. وقد كتب ستراوس هذه القصيدة بعد أن نشرت صحيفة "يديعوت أحرونوت" عدداً من القصص حول حالات اغتصاب تعرضت لها فتيات فلسطينيات فى هذه الحرب، فكتب يقول:

بكر رقيقة؛ تلك هى فاطمة؛

صبية لا تعرف أحداً؛

حالمة فى بيت أبيها؛

فجأة؛ حط عليها كابوس فى الطريق؛

سيارة تطل منها عيون الرغبة؛

امتدت منها آيادى الغدر؛

فارتجفت أصابعها؛

وصارت فريسة فى ثانية ؛

رياح ؛ رياح ؛ رياح

صرخة وفاجعة ؛

فالرثاء لفاطمة ؛

والرثاء لإسرائيل .

اختطفت إلى الرمال ؛

غاصت بينهم فى البحر ؛

مثلوا بها ؛ وفعلوا بها

الشر ؛ الذى هو خير فى أعينهم .

فهاج البحر ؛ وصرخ الليل ؛

سبعة ملاعين ؛ يفترسون صبية واحدة ؛

رياح ؛ رياح ؛ رياح .

فلتذرفوا الدمع نهاراً وليلاً ؛

فالرثاء لفاطمة والرثاء لإسرائيل .

دنسوها ؛ وأنفسهم

شعبها وشعبهم .

دنسوا نور كوكبنا ؛

فى البر والبحر .

دنسوا طهارة السلاح ؛

المدافع عن وطنهم؛

دنسوا طهارة الرغبة؛

التى فى ولعها؛ تتوالد الشعوب.

رياح؛ رياح؛ رياح

لا تكفوا عن الحسرة والندم؛

فالرثاء لفاطمة؛

والرثاء لإسرائيل.

فى الرمال؛ دفنوا جثتها

خشية الفضح؛

تناسوا؛ خفة الرمال؛

ودأب الرياح؛

وهى تحمل حبات الرمال؛

كاشفة عن أصبع الصبية؛

تحمل حبات الرمال؛

تداعب يدها؛

تحفر وتحفر؛ إنها الرياح

حتى انجلى الليل؛

كاشف عن بلاء فاطمة؛

وخزى إسرائيل.

خرجوا لمقصد فى الفجر ؛

وإذا بيد تميل للسواد ؛ تنبت فى الرمال ؛

فتسمروا ؛ وأنصتوا

يد تنضح بالجرم

وترقد فى عتمته

يد على حافة الدنيا

ترتعد فيها الشمس وهى تشرق ؛

يرتعد فيها الإنسان والبحر

رياح ؛ رياح ؛ رياح

فلا تكفوا عن الحسرة والندم ؛

فالرثاء لفاطمة

والرثاء لإسرائيل[٦٩] .

هكذا ؛ عبر لنا الشاعر الإسرائيلى آريه ستراوس عن صورة أخرى من صور الجرائم الأخلاقية التى مارسها الجنود اليهود فى حق الفلسطينيات . ففى هذه القصيدة الطويلة ، نقل لنا ستراوس تفاصيل حادثة قتل واغتصاب لإحدى الفتيات الفلسطينيات . ويبدو أن الشاعر كان يمتلك معلومات دقيقة عن هذه الحادثة ؛ إلى درجة معرفته باسم الفتاة الفلسطينية " فاطمة " . فقد كانت " صبية بكر رقيقة " و " حالمة فى بيت أبيها " ينتظرها الأمل والحياة ؛ إلى أن نهشت جسدها " أعين الرغبة " ؛ فامتدت إليها " آيادى الغدر " ؛

فتحولت فى لحظة إلى "فريسة" . لقد وقعت فى أيدى سبعة من الجنود اليهود الذين لم يرحموا "صرخاتها" أو "صباها" ؛ فاغتصبوها ومثلوا بجثتها .

ولم يختتم الشاعر الجزء الأول من قصيدته بـ"رثاء فاطمة" فحسب ؛ بل دعا الجميع إلى "رثاء دولته" التى لم تستحق أن تولد ؛ لأنها قامت على أجساد النساء الفلسطينيات والنهش فى لحمهن ؛ "فالرثاء لفاطمة ، والرثاء لإسرائيل" .

واستكمالاً لتفاصيل هذه الحادثة المروعة التى نقلها لنا ستراوس فى قصيدته ؛ فقد أخذها الجنود اليهود إلى البحر و"غاصت بينهم ؛ ومثلوا بها ؛ وفعلوا فيها الشر" ؛ الذى اهتزت له السموات فـ"هاج البحر" (וישאג הים) و"صرخ الليل" (ויזעק הלילה) ؛ وهما تعبيران جميلان يعبران عن فظاعة ما فعلوه بها من جرم ، لا سيما وقد استخدم الشاعر هنا واو القلب الشائعة فى العهد القديم ؛ وكأنه يقول لهم فى أى دين تقتلون وتغتصبون ؛ حيث ينهى الدين اليهودى عن القتل والزنا . "فالرثاء لفاطمة والرثاء لإسرائيل" ، كررها الشاعر مرة أخرى للتأكيد على الجرم الأخلاقى الذى قام به الجنود الإسرائيليون فى حق فاطمة التى "دنسوها ودنسوا أنفسهم" ، كما يقول الشاعر فى قصيدته ، بل أنهم "دنسوا شعبها وشعبهم" ، فلم يلحق العار فقط بشعب فاطمة ، بل الخزى والعار يلاحق هؤلاء الجنود المجرمين ودولتهم .

ولم يكتف هؤلاء الجنود بالاغتصاب؛ بل "قتلوها ودفنوها في الرمال" على الشاطىء؛ لتفضحهم "الرياح التى حملت حبات الرمل وأخذت تحفر وتحفر. لتكشف عن يد فاطمة" التى باتت "نابتة فى الرمال"؛ حتى "انجلى الليل.. ليكشف عن بلاءها" وما أصابها من عار، وأصاب أهلها ووطنها.

ويمضى الشاعر واصفاً هذا الحدث بتعبيرات جميلة تعبر ببلاغة عن حجم الجريمة التى ارتكبها الجنود الإسرائيليون فى حق فاطمة؛ وهى "الجريمة التى ارتعدت لها الشمس وهى تشرق"؛ فها هى الشمس ترتعد من فرط الجرم والبلاء؛ وكذلك فقد "ارتعد البحر والإنسان". فقد يكون الأمر طبيعياً للإنسان الذى يفجع من اكتشافه لجريمة ما، أما ارتعاد الشمس والبحر فهو تعبير رائع يدل على حجم الفاجعة التى ألمت بتلك الفتاة؛ وحجم الجرم الذى ارتكبه هؤلاء الجنود؛ إلى حد تكرار دعوات الشاعر لـ"رثاء فاطمة ورثاء إسرائيل" معاً.

ورغم هذه التعبيرات الجميلة التى أطلقها الشاعر وكانت معبرة عن هذه الجريمة غير الأخلاقية التى ارتكبها الجنود الإسرائيليون؛ فإنه كشف عن حقيقة توجهه الفكرى فيما يتعلق بموقفه من الأرض الفلسطينية المغتصبة فى هذه الحرب؛ حيث رأى أن ما فعله هؤلاء الجنود قد "دنس طهارة السلاح... المدافع عن وطنهم". وهو شطر يأخذنا إلى طبيعة رؤيته لهذه

الحرب فهو يرى أنها حرب من أجل "استقلال وطن" لا من أجل "اغتصاب وطن" آخر؛ ارتكبت فيه دولته أفظع الجرائم وأبشعها على المستوى الإنسانى. ومن هنا فهو ينتقد الحدث الفردى الذى ارتكبه هؤلاء الجنود ولم ينتقد العمل الجماعى القائم على القتل والتفريغ والتهجير للفلسطينيين.

"لقد جاءت النهاية فى قصيدة ستراوس مشابهة لتلك الخاتمة المكررة (الرثاء فاطمة، والرثاء لإسرائيل). فالشاعر هنا يرثى وينعى صنيع الاغتصاب؛ ولكن تبين القصيدة فى نفس الوقت أن أولوياتها هى الدفاع عن روح الشعب اليهودى، فهو لا يكتب رثاء عن فاطمة، بل رثاء عن إسرائيل ودفاعاً عن حرمة السلاح، وكذلك دفاعاً عن الجنس اليهودى (احترام الرغبة الجنسية). لقد تحولت الكارثة الفلسطينية فى نهاية القصيدة إلى أداة مساعدة على خشبة المسرح؛ فى هجاء أخلاقى يهودى؛ فالفلسطينيون يظهرون فى قصائد ألترمان وستراوس فقط للمناقشة أو الحوار الداخلى حول طهارة سلاحنا"[٧٠].

ويرى الناقد الإسرائيلى بنباجى أن "مثل هذه القصائد ـ (على إثر ذلك) و(يد فاطمة)ـ تلتقى فى الاعتراف بالظلم لأجل الدفاع؛ فى نهاية الأمر؛ عن المشروع القومى الكبير. وقد تم عرض هذا المشروع عبر وصف للظلم والاعتداءات، كمشروع عظيم. ولهذا السبب، فحتى وإن اقترفت

الذنوب والخطايا فى تاريخه الواقعى، فسيبقى عبر تاريخه مشروعاً عظيماً، ولأجل هذا فهو محصن ضد النقد"[٧١].

٤) وفى قصيدة تحت عنوان השאלה הנוקבת (السؤال الأساسى) نشرت فى "كول هاعام" ١٩٥٣؛ تحدث الشاعر الإسرائيلى ألكسندر بن عن "المسألة العربية"؛ وأطلق على مشاريع الاستيطان "مشاريع الخزى والعار"؛ حيث كتب يقول:

بين أسئلة الامتحان؛
وتدور فى دائرة مربكة
هناك سؤال عادى متمرد
سؤال "المعالجة العبرية"
فكم لذكرى الماضى فضل
للرابضين على دماء شعب
وفى تعقب امرأة
وفى طرد "العدو" الذى بدا
صدى هتاف النصر
جاء ليطوى آراضيهم
وكم "للشجاعة العبرية" شموخ
حكومتك؛ يا إسرائيل؛ حكومتك
والشعب لن ترتجف يده
فمن جدر العناوين الرئيسة
يتدفق الجيش الإسرائيلى كالجان
فى مخيم اللاجئين
لأن الشعب البرىء يستدعى حياته
فوق حدود الإثارة الممنوحة

التى تهدم هوية دولتنا،
لمقرضى الاستقلال بالفائدة؛
يرتعد بين أيدينا؛
للمسألة العربية
وكم لزيف الحماقة فضلة
شتت وسحق بأكمله
حبلى تنتظر وليدها
فى شخص العجوز ذات الثمانين.
يغرس فى التربة زرعاً
فى وضح النهار يغتنم الحيوان فريسة
فى غلال الزرع كافية
تخط مشاريع الخزى والعار
من حماس الصحف
التى صارت إرثاً يوماً بعد يوم
يراقب القتل
على شاكلة دير ياسين المفزعة
التى تتربص به فى المقابل
لمريدى الاستبداد

ليس أنا كى تخدعوننى
لروح إسرائيل
تلك هى اليد الآكلة جذوع
تلك هى اليد الهادفة لوحوش
بين أسئلة الامتحان
سؤال "المعالجة العبرية"

لأن يداً واحدة هى الخانقة
عبر حدود نهر الأردن
استقلال الشعوب
أمتنا من آتون الهمجية
هناك سؤال بائس وأساسى
فى المسألة العربية[٧٢].

بدأ الشاعر قصيدته بتحد للحكومة الإسرائيلية وكيفية تعاملها مع "المسألة العربية"؛ أى مشكلة عرب إسرائيل ممن بقوا تحت وطأة الحكم الإسرائيلى، ومشكلة اللاجئين الفلسطينيين الذين هجروا وشتتوا فى بقاع الأرض. وربما يذكرنا الشاعر هنا بشعار "المسألة اليهودية" التى رفعته الحركة الصهيونية للترويج لفكرة الاضطهاد اليهودى من قبل الشعوب التى عاشوا بينها؛ وعلى أرض فلسطين رفعت شعار "أول عبرى وآخر يهودى"؛ وذلك فى محاولة لطى صفحة الماضى اليهودى وبداية صفحة جديدة على أرض فلسطين. وكأن الشاعر يقول هنا؛ لقد فعل اليهود ضد الفلسطينيين ما كانوا يعانون منه فى الماضى من تشتت وذل وخنوع طبقاً لفرضيات الحركة الصهيونية آنذاك. ورغم الجانب الإنسانى الذى يبدو فى القصيدة؛ فهو هنا يعقد مقارنة ظالمة بين "المسألة العربية" و"المسألة اليهودية" فيساوى بينهما مساواة غير عادلة؛ لاسيما وهو يخشى فى القصيدة على "هوية الدولة"؛ أى أن سؤاله عن المسألة العربية ينبع من خشيته على هوية دولته؛ والتى بسببها "يرتعد ذلك السؤال.. سؤال المعالجة العبرية للمسألة العربية"؛ وهو سؤال يجر الشاعر إلى ذكريات

الماضى التى عاشها اليهود؛ "فكم لذكرى الماضى فضل". كما يرى الشاعر أن الحماقة هى التى دفعت اليهود إلى تهجير شعب بأكمله ليتجرع ما تجرعوه فى الماضى "وكم لزيف الحماقة فضلة"، فمن الحماقة أن يفعل المعتدى ما كان يفعل به فى الماضى.

ورغم ذلك؛ فقد تناول الشاعر عمليات القتل وسفك الدماء التى تعرض لها الفلسطينيون فى هذه الحرب؛ فتحدث عن الجنود اليهود "الجاثمين على دماء شعب" شتت و"سحق بأكمله"؛ وشبه هؤلاء الجنود بالحيوانات التى تغتنم فريستها فى وضح النهار "فى وضح النهار يغتنم الحيوان فريسته".

وقد شبه الشاعر أيضاً المشروع الاستيطانى الإسرائيلى بمشروع الخزى والعار لأنه قام على اغتصاب بلاد لشعب آخر؛ وقد "جاء ليطوى آراضيهم"؛ والطى وحده يشير إلى المساحات الفلسطينية الشاسعة التى سلبتها إسرائيل.

وفى الجزء الثانى من القصيدة أدان الشاعر الحكومة الإسرائيلية؛ وهى تمضى فى استكمال هذه المشاريع الاستيطانية غير الأخلاقية؛ "حكومتك يا إسرائيل تخط مشاريع الخزى والعار" تحت حماية "الجيش الإسرائيلى الراعى للقتل" والمذابح فى كل مكان وفى كل المدن والقرى الفلسطينية؛ وعلى غرار ما حدث فى مذبحة "دير ياسين المفزعة[٧٣]"؛ كما يقول الشاعر؛ واصفاً هذه المذابح والدماء التى تراق من أجل الاستيطان بالهمجية والخداع

قائلاً: "ليس أنا كى تخدعوننى . . . لأن يداً واحدة هى الخانقة والآكلة استقلال الشعوب" . وهى يد الصهيونية التى مارست الخداع ضد اليهود وأتت بهم إلى الحروب على أرض يعيش عليها شعب منذ آلاف السنين؛ وقد "بدا هذا الشعب فى شخص العجوز الفلسطينية ذات الثمانين عاماً" . وهو اعتراف من قبل الشاعر بالتجذر الفلسطينى فى هذه الأرض. وقد وصف الشاعر هذه المشاريع الاستيطانية بالهمجية المهددة لأمن إسرائيل؛ فيد الصهيونية ممتدة لكل مكان و "تلك هى اليد المهددة لأمننا من آتون الهمجية" .

وفى نهاية القصيدة يصف الشاعر السؤال الذى طرحه بـ "السؤال البائس والأساسى" ؛ وهو سؤال "المعالجة العبرية" للمسألة العربية. فرغم أنه سؤال أساسى فلا إجابة له؛ ويبدو أن الشاعر كان محقاً فى هذا السؤال الذى طرحه وقت كتابة القصيدة عام ١٩٥٣ ؛ وحتى وقتنا هذا لم تستطع إسرائيل الإجابة عنه؛ فما زال سؤال الهوية يطرح نفسه بكل قوة على الساحة فى إسرائيل.

(٥) ونقرأ لشاعر آخر هو ش. طوبيا في قصيدته "מזמורים" "مزامير" التي نشرتها صحيفة ها آرتس بتاريخ ٣٠/ ١/ ١٩٤٨ ، وهو يصور فيها مجمل الأحداث غير الأخلاقية التي رافقت حرب ١٩٤٨ ، وقيام "دولة إسرائيل" على جثث الفلسطينيين وأنقاض المدن الفلسطينية؛ بعد أن طالها الخراب وعمليات التدمير والتطهير العرقي، والغريب أن الشاعر

يعترف بالماضى اليهودى الذليل وكأنه حجة لمثل هذه الأعمال غير الأخلاقية :

خرجنا مشردين من المذبح لطلب الموت والثأر ؛
حفاة القدمين تخطينا جبال الالب ولم نصاب بأذى
هكذا بدأت الأنشودة ؛
كنا طيبين ، كنا متميزين ، ولم نعد خائبين .
على أكتافنا حملنا الحكمة المقدسة ، حكمة الآباء
فجعلنا من جذور الأشجار – مأكلاً لنا
وجوز الهند – مشربًا
ومن الغربان البيضاء لحمًا حلالاً
ومن فراء الدببة كسوة لعروشنا .

هكذا يعترف الشاعر بالماضى اليهودى وقد خرجوا "حفاة" و"مشردين" ليبدأو عزف أنشودة الآباء لبناء "العرش" على أرض فلسطين ، وكأن القتل وسفك الدماء من الحكمة المقدسة . ولعلنا نلاحظ عنوان القصيدة "مزامير" ، فهى أناشيد للرب يملؤها الشاعر بالحكى عن قصة بناء وطن على أنقاض وطن آخر ، متأثراً بما جاء فى مزامير العهد القديم :

وفي غسق الليل أشرقت بيوت الرب
براقصات جميلات ذات شعر ذهبي

ومن ورائهن راقصين يعزفون.

هكذا تم تقبيلنا مثلما تقبل الراقصات

تلمست أيدينا صدور كبيرة وقوية

فالنفس مشحونة، عذراء يكتنفها الحزن

حتى يبلغ الأجل منتهاه

والعيون منهكة ومعلقة بمعابد النازحين- كبحنا الدماء وألم الشفاة.

شواطئ عالية من البحر نُزِعت ملكيتها؛

ينابيع متفرقة انفجرت.

فجأة تغطت أبواق الهيكل بستار

وهبت علينا جحافل مسلحة

وقفوا واقتلعوا وبنوا جسوراً من الكراهية.

رفضنا فى صمت، وعلا جباهنا الغضب

عادوا واظهروا لنا مجددا سهام الكراهية

مسحنا جباهنا بالزيت الجيد ورسمنا على وجوهنا الابتسامة

حتى سقطت السهام ضعيفة وأخطأت أرضنا

وأشرقت الشمس

سمت مشرقة، بازغة عطرة.

أشرقت أشعتها من فوقنا

عند ذاك بسطنا معاطفنا وسجدنا على الأرض.

وظلت رؤوسنا شاخة[٧٤].

ينتهى الشاعر من قصيدته بعكس ما بدأها، فقد بدأ اليهود رحلة بناء الوطن "حفاة ومشردين" كما بدأ الشاعر القول فى مستهل قصيدته، وأنهوها "برؤوس شامخة" كما ختم الشاعر. وما بين البداية والنهاية رحلة من القتل وسفك الدماء من أجل "بناء الهيكل" والتقرب إلى الرب، وقد فاجأنا الشاعر بـ"الجحافل المسلحة" التى بنت جسوراً "من الكراهية" فى إشارة إلى حرب ١٩٤٨، وكأن استلاب الأرض لا يتطلب مقاومة وإن كانت خاسرة فقد "سقطت السهام ضعيفة" واغتصبت الأرض من أصحابها و"أشرقت الشمس" وقامت الدولة على أنقاض وطن آخر.

(٦) وفي تعبير آخر عن الجرائم التي اقترفتها الصهيونية بحق الشعب الفلسطيني يطالعنا الشاعر أدم ر. الذي كتب قصيدة طويلة عنوانها אורות לשלום، אורות לחיים "أنوار للسلام، أنوار للحياة" نشرتها صحيفة "ماسا" بتاريخ ٢٦/ ٣/ ١٩٥٣، يصف فيها كيف كان يتعامل الجنود اليهود مع المدنيين الفلسطينيين من خلال قصة أو واقع عايشه بنفسه:

مع مجنزراتنا خرجنا

إلى الحقل؛

أرض عذراء

لتنقلب.

كدسنا أسلحة؛

بنادق ورشاشات

صناديق سلاسل

ومخازن طلقات.

غالباً

خرجنا للحرث

ولنتربص أيضاً.

وفي مقابلنا جلس مصطفى؛

أو محمود

أبناء القرية التي خلف الحدود؛

ومثلنا تربصوا أيضاً

لأجيال الماكنات

الذين استصلحوا تربة أرض عصية؛

وزرعوا.

بيننا كانت الحدود

كحدود

وهذا كان طريقاً

طريق ترابى

منبسط؛

وكثيراً ما كنا نهبط

لتزييت تروس المحاريث[٧٥].

هكذا يعترف الشاعر بالتربص بأبناء القرية "مصطفى أو محمود". ويحاول الايحاء بأنهم جاءوا لاستصلاح الأرض كما روجت الحركة الصهيونية. ثم يواصل سرده للقصة بالترويج لصورة العربى البدوى؛ وهى الصورة النمطية والمغلوطة التى دأب الأدب العبرى على الترويج لها فى محاولة للزعم بأنهم جاءوا إلى أرض خربة يسيطر عليها مجموعة من الرعاة، لكى يستصلحوها ويحولونها إلى جنان عامرة:

وكثيراً ما كان ينزل مصطفى
أو محمود، أو أياً ما كان اسمه
لجمع الغلات؛
بينما نعاجه المبعثرة
في الحقول؛
تربض بيننا
ملحة – مزعجة؛
تراقب.
طريق ترابي ضيق ومنبسط
الحدود
من الأمام
يمتد الوادي
في اخدود الدائرة
إنني لا أعلم
اذا ما غفوت

أو إذا ما رأيت الحقيقة[٧٦] .

ثم يواصل الشاعر القول :

عند الظهيرة
نزلوا جميعهم لوليمة ؛
أما أنا فبقيت بالحراسة
وليس هذا لأن مصطفى
في موضع وقوفه قد نام
وقد رأيته من قبل جالساً منتصباً
أما الآن فظهره قد انكفأ
ومن حوله في حقول محصورة جرداء
نعاجه قد ذهبت
ذهبت وتبعثرت
ذهبت وتباعدت ؛
لكنها ستخرج للطريق مرة اخرى
ومصطفى
سينتفض
ويعدو
إلى غنمه ليجمعه
بعد قليل[٧٧] .

ويتابع الشاعر الحادثة بقوله :

هنا

أنا أرفع بندقية
ها هو
شخص فى المواجهة على الآلة
هنا
أي – من الذي خرج
من اخدود الدائرة
ولا أعرف وجهه
لم أعرفه
أعرف فقط اسم جبار
لأخوة مقاتلين
شهود على الموت
على الحق في الحياة
يذهب لعبور
الطريق
إنه يعبر الحدود!
يجمع خرافه ونعاجه
وهي تصعد أمامه ويغير وجهتها
عودة نحو الحقل
الذي ترعى فيه
يخطو في طريق متاخم للحدود
حتى أمتزج دمه بتراب
الطريق

وتسيل دماءه نحو الحقول
ويصطبغ الطريق بلون دمه
على هامشية الأرض المحروثة
الحقول التي تم حصادها
جميعاً[٧٨].

ثم يمضي الشاعر بالقول:

قبضت على بندقيتي
بيدي
يد مشلولة
وبائسة
وبين وحل رابية صدر
منغرزة
بالجذوع البندقية . .
عجبٌ . .
أين هو؟
لقد اختفى
فقط الدم
بقى[٧٩].

لم يتبقى إلا الدماء التي سالت على تراب الطريق تشهد على ما قام بـه هذا الجندي ضد الصبي الراعي الفلسطيني، فأخذ الجندي يحدث نفسه:

وتغور في عيني أيضاً

معالم الطريق
وليس من حدود تفصل بين إنسان وآخر
وأرغب في موقفي هذا
في أن أنزل عنه
إلى مصطفى أو محمود
أو أياً ما كان اسمه
لأقترب
ولأمد له يدي
ولأطلب السلام لقطيعه
وله
ولأولاده
وليسأل هو
هل المطر في حقوله
غزيراً ؟ .
وليسأل أيضاً
هل الخضرة قد بدت
فوق جبالنا
ولكي يطلب السلام
لأولادنا
الأثنين الصغار
لكي نحيا كلانا أخوة
بسلام

وقت الأصيل
وبعد ذلك "الفارمل" (الفاصل)
يأتي
ويأخذني بالمركبة الأحمر:
ونكدس بنادق مكفهرة مرة أخرى
و"المزيتة" وصندوق عتاد
ونرحل... إلى البيت
ومن الجانب الآخر
يعود الآخر إلى مخدعه
وتعلو النار من الحضيرة
ويعلق البندقية التي عفا عليها الزمن على الحائط
كشيء من متعلقاته غير المرغوب بها
ويحل الليل
ومعه شيء يرمز
كل شيء بحسب الانسان والزمان والمكان
ونار الحضيرة
من خربة الدير
وفي مقابل ذلك أنوار تنير
لبني البشر
تحت النجوم ذاتها
أنوار للسلام أنوار للحياة[٨٠].

(٧) وفى إطار الممارسات غير الأخلاقية التى ارتكبت إبان النكبة الفلسطينية؛ يطالعنا الشاعر "شموئيل شيتل" بقصيدته בדרכי נכר "في طرقات الغربة"، التى نشرت بصحيفة هآرتس ٣١/ ١/ ١٩٥٨؛ يصف فيها كيف ارتكب الجيش الإسرائيلي جرائم حرب مع الفلسطينيين، وكيف مارس أبشع صور البطش والتنكيل ضدهم، حيث صور فيها مشاهد الطرد وهدم البيوت والبساتين، وبث الرعب والهلع بين الفلسطينيين؛ لحملهم على ترك مدنهم وقراهم:

رحلوا؛ تاركون مداخل ديارهم؛
في الليل، وتحت جنح الظلام، في طرق غريبة
هجروا ديارهم ؛ تركوها،
ولم يعودوا إليها.
ها هى المركبات، تنطلق مسرعة ورائهم؛
وتختفي الأضواء والظلال في الحقل المظلم
بينم هم يسيرون بحذر؛ مذعورون من الرصاص.
المركبات تنطلق، مسرعة نحوهم؛
وطلقات النيران العشوائية تطاردهم في الظلام؛
فى ليلة جوفاء تمر على رؤوس السائرين
بدا فيها القمر كإشارة مرور بلا ضوء
تتفرق الطرق وتتشعب في نهاية كل طريق،
ويصبح الليل مثل الهاوية تحت أقدام السائرين
و في بيوتهم يسمع فقط صوت الأبواب بفعل الرياح[٨١].

وتأكيداً على هذه الممارسات غير الأخلاقية؛ التي ارتكبها الجيش الإسرائيلي بحق الفلسطينيين، تقول الفلسطينية "جوستا داكور" وهي من مواليد قرية ترشيحا ١٩٣٠، في شهادتها التي وردت في المجموعة الشعرية "لا تخبروا في جت": "حينما دخل اليهود إلى قرية معاليا، توجهوا من هناك إلى قريتنا ترشيحا، واقتحمها الجيش مدعوماً بالعربات العسكرية، وخلال عملية الاقتحام قام اليهود بقصف القرية بالطائرات، وأدى القصف إلى تدمير مسجد القرية، وعدداً كبيراً من البيوت، وقُتل فيه أكثر من ثمانية عشر شخصاً، كان غالبيتهم من النساء والأطفال، وبينما لم تكتمل عملية دفن الموتى، حتى بدأت الغارة الثانية، فتركوا المشيعون القتلى على شكل كومة، لحين انتهاء القصف ليتم دفنهم... وفي اليوم التالي قامت الطائرات الإسرائيلية بقصف مدينة ترشيحا بشكل عشوائي، ودمرت ما تبقى منها بالكامل؛ من أجل بث الرعب في نفوس السكان؛ لحملهم على ترك منازلهم ومغادرة القرية، فهرب الناس للنجاة بعوائلهم، ومات الكثير منهم في الطريق؛ بسبب القصف العشوائي المستمر، قبل أن يتمكنوا من الوصول إلى أماكن آمنة. ولم ينجوا من تلك الأهوال إلا امرأة واحدة، استمرت على قيد الحياة حتى اليوم، في حين مات زوجها وأبناؤها الثلاثة، الذين أُنتشلت جثثهم من تحت حطام بيتهم، الذي دمره القصف بالكامل"[٨٢].

لقد وصف شيتل في هذه القصيدة ليلة من ليالى القتل والتدمير، فهكذا يرتكب الجانى جريمته فى الليل وليس فى وضح النهار. فكانت ليلة جوفاء

بدا فيها القمر باهتاً بلا ضوء؛ والظلام الدامس يسيطر على المدينة، فكان "الليل كالهاوية" كما قال الشاعر، فلم يهد المهجرين إلى طريق النجاة؛ حيث "تتفرق الطرق وتتشعب"، تحت وطأة القذائف والطلقات النارية، فى مشهد من الرعب والهلع وصراخ الأطفال والنساء. بينما أصبحت قريتهم وبيوتهم خاويةً إلا من "صوت أزيز الأبواب بفعل الرياح".

لقد ساق لنا الشاعر هذا المشهد وكأنه شاهد عيان لأبشع وسائل العنف والاضطهاد؛ وهذا ما نجده جلياً وواضحاً في أغلب شهادات الفلسطينيين التي وردت في هذه المجموعة الشعرية، ومنها شهادة "اسحاق الخطيب" المولود سنة ١٩٢٩ في مدينة عين كارم الفلسطينية والتى يقول فيها "قمت بزيارة قريتي مرتين، الأولى سنة ١٩٩٨، ولم أرغب في الذهاب إلى القرية أول الأمر، ربما لأنني لم أحتمل المشهد هناك، ولكن صديقي "محمد حبيا" قال لنقف خارج القرية، ونشاهد القرية من بعيد، فسافرنا، وما إن وصلنا حتى ميزت المكان جيداً، لقد كانت هنا رأس التوتة، جبل على الجانب الجنوبي للقرية، وكان هناك مستشفى هداسا، ومن هناك أطلت النظر إلى القرية، فلم أحتمل، وسقطت مغشياً عليّ. وبعد أن هدأت نفسي دخلت القرية، ووصلت إلى دير راهبات صهيون (دير أخوات صهيون) بجوار بيتنا. ولم يكن المستوطنون في البيت آنذاك، فتجولت حوله. وقلت في نفسي هذا لم يكن موجوداً بل كانت فقط الأحجار التي كانت تغطي المنطقة المحيطة ببئر المياه. وعندما دخلت القرية للمرة الثانية سنة ١٩٩٩ صمدت

أمام الألم، ولم أصرخ ولم أبكي، لأن معي ابنتي وحفيداتي. فطرقنا الباب وخرج إلينا رجل طاعن في السن، فقلت له إننا جئنا للزيارة بدون إذن، ولكن هذا البيت كان بيتي[٨٣].

(٨) وفى قصيدة أخرى للشاعر ناتان الترمان تحت عنوان מהומות נצרת "اضطرابات الناصرة" والتى نشرت فى صحيفة "دافار" بتاريخ ٩/ ٥/ ١٩٥٨، يحدثنا فيها عن قمع المتظاهرين الفلسطينيين المدافعين عن حقوقهم والتنكيل بهم، حيث يقول:

هدأ الوضع. والآن ينهض المواطن اليهودي
والشرطي اليهودي، ليسألوا الحاكمين
هل حقاً سيُحاكم فقط المتظاهرين العرب، الذين سبوا وألقوا الحجارة،
فى حرب الشوارع التي رأيناها أمامنا؟
لا! إنه العربي المجهول الغاضب الكاتم غيظه
إنه العربى الذى ضُرب وسيق إلى عربة الشرطة؛
وهو في الحقيقة في جانب الحق، الوحيد غير المتهم
بهذه الدوامة
على الرغم من إنّه يقبع في السجن[٨٤].

هكذا يصور الشاعر الأحداث التي جرت في سنة ١٩٥٨ في مدينة الناصرة الفلسطينية، وكيف تعامل الجنود الإسرائيليون مع المنتفضين العرب المطالبين بحقوقهم فى استرداد أرضهم، وبعد أن هدأ الوضع ربما يتساءل

البعض عن ما حدث وأسبابه، فالعربى حسبما قال الشاعر غير متهم رغم أنه فى السجن، غير متهم لأنه يدافع عن ووطنه وينتفض لكرامته وبيته وأرضه التى اغتصبت أمامه وانتهكت حرمتها.

ثم يستمر الشاعر في الجزء الثاني من القصيدة، فى سؤال استنكارى عن السبب فى كل هذ الاضطرابات بقوله:

لا تزال تهدئة اضطرابات الأول من مايو متواصلة
بمئات المعتقلين، والبحث والملاحقات
فهل الاضطرابات ـ تحريض شيوعي؟ حقاً إنه تحريض
لكن العصيان، والاحتجاج، والسباب، حق مشروع
الاضطرابات– تحريض شيوعي. نعم . لكن ما أصل المشكلة؟
أحقاً هو تحريض فقط؟ وتلك هي النهاية المرضية لنا؟
أحقاً إلزام على خبرائنا، فى التعامل مع الأقلية العربية
أن يثبتوا أنهم ليسوا طرفاً
في هذه الدوامة المتوقعة والواجب حدوثها[٨٥]**؟**

ويواصل الترمان القصيدة:

سنوات من العمل الاعتيادي والنداء بالمسلمات في مسألة الأقلية العربية في الدولة،
سنوات لمنهج الركود، والتشاور من جانب واحد، وطريق واحد،
. . .
نعم نعلم جيداً: أن في قلوب عرب إسرائيل
جمرات لن يبرد أي "ابداع" حرارتها الكامنة.

إنها جراح ذكريات الهزيمة، وجراح حكم الأجنبي وجراح مدينة وتل
لقد أصبحوا تركة للأخرين.
وعلمنا أيضاً: أن هناك جدراناً وقيوداً
من يريد أن يزيلهم بيده؛ فهو يهدم
أوتاد الأمن الأساسية.

...

ما يجب تغييره؛ المنهج الذي يزرع يومياً
إهانة واحتقار ومرارة، تشعل وتثير كمروحة الهواء
أمام جمرات الضغينة الغريزية

...

ما يجب تغييره هو خط. كل الخط،
الخط الذي يجعل العرب منذ عشرات السنين
سكان منبوذون ومهانون فى الدولة،
منبوذ الإنسان، ومطارد، طالما عصى وخرج صوته في الناصرة!
فالتحريض أثاره، حقاً، لكن منذ لحظة نهوضه
لم يكن غضبه عبثياً.
لأننا كنا سبباً في جعل الحق معه
والحق سيبقى معه؛ حتي تأتي النتيجة الحتمية المأمولة
إنها العبرة من الناصرة. إنها دساتير الشعوب؛
أقلية مقموعة محققة سنقولها وسنحتاج لكلماتنا
إنها أقلية تجعل أغلب السكان يرتدون خوذة ويحملون هراوة،
هذه العلامة المميزة لنالن تزول في وقت قريب[٨٦].

(٩) وتطالعنا الشاعرة عادا أهاروني [٨٧] بقصيدتها למען בטחוננו "من أجل أمننا" ، تصور فيها مبدأ القوة فى التعامل مع الفلسطينيين، تأكيداً لمبدأ أن العرب لا يفهمون سوى لغة القوة؛ وهو المبدأ الراسخ فى الأدبيات الإسرائيلية التى تتعامل مع العربى من منطلق هذا المفهوم الذى يرسخ لقاعدة التهميش والتغييب للعربى؛ حتى يسهل التعامل معه باستخدام كل وسائل العنف والقسوة؛ تذرعاً بالحصول على الأمن المفقود، حيث تقول:

من أجل أمننا
نهشم لهم أسنانهم
من أجل أمننا؛ نلقي بأطنان المتفجرات
على بيوتهم وفوق رؤوسهم
وعلى بساتينهم وفوق كرومهم؛
لنحطم كبرياءهم وأمنهم
من أجل أمننا فقط
لكن؛ أين أمننا؟
وماذا عن أمنهم؟
والحقيقة إن أمننا وأمنهم
هما توأمان متلازمان
لا يمكن أن يصاب أحدهما
دون اصابة الآخر [٨٨].

وعلنا نجد أن هذا المبدأ الخاص بلغة القوة فى التعامل مع الفلسطينيين لا يجدى نفعاً مع الفلسطينيين الذين لا يعبأون بمثل هذه السياسات؛ فهم مستمرون فى طرق الذاكرة الإسرائيلية مهما كان الثمن، والتأكيد على عروبة الأرض وأصالتها الفلسطينية. وهو ما نجده في شهادة الفلسطيني "إسحاق الخطيب" المولود سنة ١٩٢٩ في مدينة عين كرم الفلسطينية، التي وردت ضمن المجموعة الشعرية "لا تخبروا في جت"، حيث يقول: "كان هذا بيتي؛ يجب على الإسرائيليين أن يقفوا عند هذه الجملة ويفهمونها جيداً، فهناك الكثير من الفلسطينيين ممن يطرقون الأبواب، ويقولون لليهود هذا بيتي، كما أن هذه الزيارات المتكررة مفيدة جداً لنا نحن الفلسطينيين؛ فاليوم وبعد مرور أكثر من خمسين سنة من الاحتلال؛ ما زلنا نقف أمام بيوتنا ونقول لهم هذا بيتي. وإنني الآن من المؤيدين للاستمرار فى هذه الزيارات، على الرغم من صعوبتها، وعلى الرغم من إننا لا نستطيع الصمود أمام المشهد المحزن، فاليهود يعتقدون أن هذه الأرض هي ملكهم منذ ألفي سنة، إلا إنّنا سوف نستمر في طرق الأبواب، وطرق ذاكرتهم، ونقول لهم إنّ هذه الأرض التي تقطنون فيها، هي أرض قد تم السطو عليها، أي نمارس معهم حرب أخلاقية. إنني أعتقد إنّنا إذا أردنا أن نستعيد حقوقنا كاملة؛ فإن من الواجب علينا ألا نغفل الإصرار على أمرين وهما: حقنا في الوطن وحقنا في العودة. وإنّ هذا الإصرار سوف يتم تفعيله كوسيلة ضغط على المجتمع الإسرائيلي، وعند ذاك سوف يبدأون في

التفكير، ومعرفة أن هذه الأرض قد تم سلبها من أهلها، وأن المجتمع الإسرائيلي يعيش على هذه الأرض على حساب أناس آخرين، أناس سوف يلوُحون دوماً لهم من أمامهم ومن خلفهم ومن خلف النوافذ والأسوار والحدائق الصغيرة ومن خلف البيوت ليقولون لهم إنّ هذه الأرض هي أرضنا[٨٩].

الفصل الثالث

الذاكرة الإسرائيلية
والجغرافيا الفلسطينية
(احتلال الوعى)

الذاكرة الإسرائيلية والجغرافيا الفلسطينية (احتلال الوعى):

عمل الكثير من الشعراء العبريين على تحقيق أهم أهداف الصهيونية فى امتلاك الأرض الفلسطينية؛ ولعبوا دوراً كبيراً فى الترويج لفكرة الحنين إلى "إقليم قومى" منذ الإرهاصات الأولى للصهيونية مع نهاية القرن التاسع عشر؛ فوقتها كان الشعر العبرى يمثل تعبيراً ثاقباً لحقيقة التطلعات الصهيونية على أرض فلسطين. ورغم الجهود الكبيرة التى بذلها هؤلاء الشعراء منذ ما قبل قيام الدولة فى إثراء الحنين إلى أرض فلسطين ومداعبة أحاسيس اليهود تجاهها؛ وبعد قيام الدولة فى محاولات تفريغ المدن والقرى الفلسطينية وتغييبها، فإننا نستطيع القول بأن الجغرافيا الفلسطينية بقراها ومدنها؛ مازالت قابعة فى الذاكرة الإسرائيلية؛ فهى تحتل الوعى الإسرائيلى وتنبش فيه من آن لآخر. فمثلما حاول الكثير من الشعراء الإسرائيليين تغييب هذه المدن ومحوها من الذاكرة، فهناك أيضاً شعراء آخرون طلت من ذاكرتهم تلك القرى والمدن الفلسطينية رغم كل محاولات التغييب التى طالتها هذه المدن من قبل الأدباء والشعراء الإسرائيليين على مدار عقود من التاريخ.

وقد احتوت هذه المجموعة الشعرية على العديد من القصائد العبرية التى تعبر عن احتلال هذه المدن والقرى الفلسطينية للوعى الإسرائيلى؛ فرغم الحديث عن قرى بعينها وأخرى مجهولة دون ذكر اسمها؛ فإن هذه

المدن قابعة فى الذاكرة الإسرائيلية التى وإن استطاعت أن تمحوها على الأرض فإنها لم تستطع محوها من الذاكرة؛ فهى تؤرق هؤلاء الشعراء وتذكرهم بعمليات الطرد والتهجير وسفك الدماء والدمار؛ الذى ألحقه الجيش الإسرائيلى بهذه المدن والتى أقيم على أنقاضها الاستيطان الصهيونى.

ورغم أن الإنسان الفلسطينى كان مغيباً فى هذه المجموعة الشعرية التى احتوت تقريباً على أغلب القصائد العبرية التى كتبت عن النكبة الفلسطينية؛ فإن أرضه بمدنها وقراها كانت هى البطل الرئيس فى بعضها؛ فالساحة الجغرافية الفلسطينية حاضرة وبقوة فى هذه القصائد؛ وذلك فى مقابل غياب الفرد الفلسطينى. وهو أمر يؤكد عليه الناقد الأدبى أيمن سكسك، بقوله: "من الممكن أن نرى فى هذه المجموعة الشعرية كيف محت بعض القصائد العبرية النكبة الفلسطينية؛ ولكنها تعاملت معها فى نفس الوقت. فقد نرى بيوتاً مهجورة دون أن يذكر من الذى سكنها قبل هجرها، وقد نقرأ عن أشجار وحقول وجنان؛ دون أن نعرف من الذى غرسها. فالساحة الجغرافية التى بقت بعد النكبة الفلسطينية كانت هى البطل؛ وليس البشر الذين تم طردهم. ويمكن القول؛ إن الشعر العبرى فى العقد الأول من قيام دولة إسرائيل يعترف بالنكبة الفلسطينية، ولكنه يمحو الفلسطينى نفسه"[٩٠].

وتخاطب الباحثة الإسرائيلية نوجا كدمان المجتمع الإسرائيلى فى كتابها (على جانبى الطريق وعلى هامش الوعى) قائلة: "إن الانشغال بذاكرة القرى الفلسطينية المهجرة وخرائبها في المرحلة الراهنة؛ من شأنه أن يبدو خارج سياق الزمان وغير ذي صلة؛ ومع ذلك فإنه من الضرورى جداً معرفة وفهم الماضي لا من أجل العودة إليه وتقديسه؛ بل من أجل مواجهة حقيقية ومسئولة مع الحاضر الذى هو نتاج الماضي"[٩١].

لقد احتلت القرى والمدن الفلسطينية قبل تفريغها الذاكرة الإسرائيلية؛ فلم يستطع الشعراء الإسرائيليون محوها من ذاكرتهم مثلما فعلوا مع أصحابها؛ فهى كائنة تحت مستوطناتهم، تؤرقهم وتذكرهم دوماً بالماضى الذى سحق فيه الإنسان الزائل؛ وظلت فيه الأرض الباقية تحتل الوعى الإسرائيلى وتذكر الإسرائيليين بإناس عاشوا عليها آلاف السنين، لتأخذهم فى رحلة إلى ضبابية الوعى الإسرائيلى ومواجهته مع النكبة الفلسطينية، لا سيما وقد احتلت هذه القرى والمدن الفلسطينية عناوين العديد من القصائد العبرية التى كتبت حول النكبة؛ مثل (القرية الميتة) لدان باجيس؛ و(قرية مهجورة) و(اشكلون) لحيا فيرد؛ و(القافلة تعبر القرية) ليتسحاق شاليف، و(يافا) لنعومى ناداف؛ والتى نشرت بصحيفة "عل هامشمر" فى نوفمبر ١٩٥١؛ وفيها تغنت الشاعرة الإسرائيلية بمدينة يافا؛ التى تعد من أقدم

وأهم مدن فلسطين التاريخية، حيث كانت لفترة طويلة تحتل مكانة مهمة بين المدن الفلسطينية الكبرى من حيث المساحة وعدد السكان والموقع الإستراتيجي، حتى تاريخ وقوع النكبة عام ١٩٤٨، وتهجير معظم أهلها العرب، وفيها تقول ناداف:

رأيتك فى صباح مشرق، من رؤوس أبراجك يطل نور ساطع
أجراسك تدق؛ بهجة بالنهار
رأيتك عالية وحالمة ومجيدة
من خلود الزمن تبدو أنقاضك
لكنك تعرفين: قد يعود الزمن لأجل البناء
وعلى مقربة من الأسوار؛ وفى الطرق؛ والممرات
تخطو الحمير ناحية السوق؛ فى مسيرة ألوف السنين
حوافرهم تقرع الأرض الحجرية.
وفى الساحة وفوق المواقيد تشوى الأسماك
فى هواء البحر الرطب؛ فى كل صباح[٩٢].

هكذا تغنت نعومى ناداف بمدينة يافا التاريخية؛ عروس البحر كما كانوا يطلقون عليها؛ وقد أتت لنا بمشهد تاريخى قبل احتلالها؛ فها هى "أجراس الكنائس وهى تدق" فى كل صباح؛ حيث بها عشرة كنائس وثلاث أديرة. وتواصل ناداف مدح يافا فى قصيدتها التى كتبتها بعد ثلاثة

أعوام من تهجير أهلها الفلسطينيين قائلة : " رأيتك عالية وحالمة ومجيدة . . من خلود الزمن تبدو أنقاضك " .

ويبدو أن ناداف تعلم جيداً مكانة يافا تاريخياً وموقعها الجغرافى المتميز ؛ حيث تقع على الساحل الشرقي للبحر المتوسط . وكانت تُعتبر نافذة فلسطين الرئيسة على البحر المتوسط ؛ وإحدى بواباتها المهمة للعالم الخارجي من حيث وقوعها كمحطة رئيسة تتلاقى فيها بضائع الشرق والغرب ، وجسراً للقوافل التجارية . ويعد ميناء يافا هو ميناء فلسطين الأول من حيث القدم والأهمية التجارية والإقتصادية ، وكان فيها أيضاً ستة أسواق رئيسية متنوعة وعامرة ؛ وهو ما تؤكد عليه ناداف فى قصيدتها قائلة : " تخطو الحمير ناحية السوق ؛ فى مسيرة ألوف السنين " ؛ وهو تعبير يشير إلى جذرية الوجود الفلسطينى فى هذه المدينة التى سقطت فى أيدى اليهود إبان النكبة ؛ حيث جمع أهالي يافا في حي العجمي ؛ وأحاطوه بالأسلاك الشائكة ، وجعلوا الخروج منه والدخول إليه بتصريح من الحكومة الإسرائيلية .

وهكذا كانت مدينة يافا حاضرة بقوة فى وعى ناداف بعبقها التاريخى ؛ ومكانتها الجغرافية ؛ وشواطىء بحرها الجميل ؛ وكنائسها وأسواقها دون ذكر لسكانها الفلسطينيين الذين عاشوا عليها آلاف السنين ، إلى أن طردوا منها فى أحداث النكبة .

(٢) وفى قصيدة أخرى تحت عنوان אשקלון (أشكلون) نشرت فى يناير ١٩٥٠ ؛ كتبت الشاعرة الإسرائيلية حيا فيرد عن مدينة عسقلان أو مجدل الفلسطينية قبل أن تطلق عليها إسرائيل "أشكلون" .

وفى هذه القصيدة تتحدث فيرد عن هذه المدينة بمنحدراتها وصخورها وبحرها، وقد بدأتها بصورة الوجود اليهودى الحديث بعد طرد أهلها الفلسطينيين؛ حيث يقف ايلان اليهودى ومن خلفه الخراب الذى ألحقه الجيش الإسرائيلى بالمدينة :

لم يكن ذلك ظل ايلان؛ بل كآبة الوجود والصخور
فلما حط الصمت على منحدرات أشكلون؛
كالصمت فى المذابح المقدسة[٩٣] .

ورغم الوجود اليهودى الحديث فى هذه المدينة كما تقول الشاعرة؛ حيث كتبت هذه القصيدة فى يناير ١٩٥٠ ؛ فإن عسقلان بعبقها التاريخى حاضرة بقوة وسط شواهد القبور وأمواج البحر المتلاحقة :

على الشاطىء؛ كشواهد القبور الصامتة؛
فى مواجهة الأمواج وضوء النهار؛ تتلاشى
صخرتان
وأخريتان عملاقتان تتجمدا
ليغوصا فى المياه والرمل

وتتعالى صرخاتهما فى مواجهة الضوء والخوف.

وها هما صخرتان ممزقتان

فرتا من الموت والثكل

فتراقصت على خراب أشكلون وفقدها الذئاب[٩٤].

وهكذا؛ تصف فيرد خراب عسقلان مدينة "الضوء والخوف" على أيدى الجيش الإسرائيلى؛ إلى حد تعالت معه "صرخات الصخر" وهى "تغوص فى المياه والرمال"؛ وهى تعبيرات جميلة أتت بها الشاعرة للتعبير عن مدى الخراب الذى لحق بهذه المدينة الجميلة؛ فالصخر يتميز بالقوة والصلابة ولكنه "تمزق وانهار" فى مواجهة "الموت والثكل" الذى لحق بأهل المدينة التى "تراقصت على خرابها الذئاب". وهكذا ربما تصف الشاعرة اليهود هنا بالذئاب؛ التى انقضت على فريستها فى لحظة خداع وسلبت المدينة من أهلها، وقد عايشت الشاعرة تلك اللحظة؛ حيث جاءت من بولندا إلى فلسطين عام ١٩٢٤ مع أسرتها وكانت تبلغ من العمر وقتها ثلاثة أعوام.

وقد بدا أن فيرد حزينة للخراب الذى لحق بهذه المدينة؛ ويبدو أنها كانت تقوم بزيارتها من آن لآخر حيث كانت تعيش فى تل أبيب التى تبعد عن هذه المدينة بخمسة وعشرين كيلو متراً؛ ويبدوا أيضاً أنها عاصرت لحظات الدمار الذى لحق بهذه المدينة حيث انتقلت للعيش فى مستوطنة

"جيفرعام" التابعة لكيبوتس همئوحاد عام ١٩٤١ وفيه عملت كمدربة ومدرسة؛ وكان لها دور فى الدفاع عن المستوطنة إبان أحداث النكبة عام ١٩٤٨ حيث تواصل فيرد حديثها إلى أشكلون قائلة:

أمواج وأمواج من الدمار والمجد
كمعدل موج بحرك الذى لا يهدأ؛
فلا تحملين قصائدك فى المركب؛
فلتصغين؛ لقصيدة حزن؛
لك يا أشكلون المبتسمة.
اشكلون المبتسمة للمحنة؛
أما أنا فلم ابتسم.
يالها من رقة للبطلة تجاه بطل خائر
فشبح الأسد النافق
فظيع كحياته[٩٥].

لقد خاطبت الشاعرة المدينة وهى تحمل الأسى والحزن على ما لحق بها؛ وهو أمر قد يكون غريباً أن يصدر عن شاعرة إسرائيلية؛ ولكننا نلاحظ أنها تتحسر على المدينة وما لحق بها من خراب أثناء الحرب؛ ولم تأت بذكر لما لحق بأهلها الذين سفكت دماؤهم وهجروا وطردوا منها، فهى تبكى المكان ولا تبكى أهله؛ فهى تعترف بالنكبة وتصف لنا صور الدمار

وتمحو الفلسطينى نفسه . فالمدينة قابعة فى وعى الشاعرة بدمارها ومجدها "أمواج وأمواج من الدمار والمجد" ؛ وببحرها "الذى لا يهدأ" ؛ وبـ"ابتسامتها للمحنة" . وقد وصفتها فيرد بالمدينة الباسلة القوية التى تجمع بين القوة والرقة ؛ "يالها من رقة للبطلة تجاه بطل خائر" ، فما فعلوه الجنود الإسرائيليون بها لا يتسم بالشجاعة ؛ فهى بطولة زائفة وواهنة تماماً ؛ "فالأسد النافق مخيف مثل حياته" كما تقول فيرد ؛ مواصلة حزنها وبكاءها على ما لحق من خراب بتلك المدينة الفلسطينية العريقة :

سأخطو بين أمواج الخراب

لأتنبأ لك بكل ما كان ؛

وسيكون

أيتها المدينة المبتسمة للمحنة ؛

فالآفاق البعيدة تمتد لحدود السماء ؛

فإذا بظل متهتك على الأمواج يرتعد ؛

والشمس فى المياه تغوص ؛

وليلة من السكون تندثر ؛

بينما يعتلى الخوف أشكلون .

فليتدارك ضوءك الساطع ذبولك ؛

هكذا تحمل وحدتها ؛ عابسة وراسخة[٩٦] .

وهكذا تنهى فيرد قصيدتها عن "عسقلان" الفلسطينية التى صارت "أشكلون" بعد الاحتلال الإسرائيلى لها؛ فرغم "عبوسها ووحدتها وخوفها" فهى "راسخة" و"مبتسمة للمحنة" بفضل "ضوءها الساطع" الذى سيتدارك "الذبول" والخفوت الذى لحق بها.

وهكذا أيضاً؛ تتباكى الشاعرة الإسرائيلة هذه المدينة دون ذكر للنكبة نفسها وما لحق بسكانها من الفلسطينيين؛ فالفرد الفلسطينى غائب تماما فى هذه القصيدة وكأن الخراب والدمار لحق فقط بالمكان؛ الذى تبدو أهميته لدى الشاعرة بصورة واضحة، فهو يحتل وعيها كمدينة "إسرائيلية" كانت فى الماضى "فلسطينية"، وهكذا يتدارك "الضوء الساطع" فى ظل الوجود اليهودى "ذبولها" الذى كان فى ظل الوجود الفلسطينى كما تحاول أن تقول الشاعرة. ولكن رغم هذا التجاهل والمحو للشخصية الفلسطينية فى هذه القصيدة؛ فالنكبة حاضرة هنا وبقوة كحدث "اهتزت له الصخور وتعالت صرخاتها" من فرط "الموت والثكل" الذى لحق بسكان تلك المدينة.

(٣) وفى قصيدة بعنوان פרידה מהדרום "وداع الجنوب" التى نشرت عام ١٩٤٩؛ وصف الشاعر الإسرائيلى أفا كوبينر مشاهد إحدى القرى المهدمة؛ دون ذكر لاسمها؛ من خلال حديث يدور بين جنديين إسرائيليين مرا على هذه القرية فى طريقهما لتنفيذ إحدى المهام الموكلة إليهما:

نهض أحدهما فى ساحة المعركة ؛

وصرخ بصوت أشبه بتلك الليلة ؛

هل سنصل ؟ وكيف؟[٩٧]

يبدأ الشاعر الحديث بين الجنديين الإسرائيليين بـ" صرخة أشبه بتلك الليلة " التى يبدو أنها أعيتهما فيها مناظر القتل والخراب والدمار . ويصف أحد الجنديين تلك المناظر التى بدت أمامهما فى تلك الليلة :

آبار قديمة ؛ طلت فجأة أمام أعيننا

فانتفضت الدماء فى عروقى ؛

وتدفقت إلى قلب جامد وفظ ،

خيم الصمت ؛ وبقى خرير ماء عظيم وصوت عتيق يقول :

لا تخطو ؛ يا صاحبى ؛ فأقدامنا غريبة هنا

بينما يواصل صاحبى السير ؛ بأقدام واهنة ؛

فإذا بخطواتنا هامدة . . لست أنت الذى هنا

المسافر المتجول يا صاحبى . [٩٨]

ويصف الشاعر هنا حالة بعض الجنود التى أعيتهم هذه الحرب ؛ من خلال وصف إحدى القرى التى تهدمت ؛ ويبدو أن الجنديين كانا يبحثان عن مصدر للمياه " فطلت عليهما آبار قديمة " ؛ وما أن هم الأثنان للشرب حتى علا منها صوت قديم قدم هذه المدينة يحثهما على مواصلة السير

فـ "أقدامهما غريبة هنا" و "خطواتهما ثقيلة وواهنة" ؛ فتلك المياه سبيل "للمسافر المتجول" ؛ وليست للمغتصبين للأرض.

(٤) وتحت عنوان illumination (تنوير)؛ هكذا جاء عنوانها بالإنجليزية بينما جاءت أبياتها بالعبرية، كتبت الشاعرة الإسرائيلية ليئة جولدبرج قصيدتها التى نشرت فى "عل همشمار" فى سبتمبر ١٩٥٦؛ وفيها تتذكر جولدبرج فى شغف؛ المدن والقرى الفلسطينية بعد تفريغها من أهلها دون أن تذكر أسماء لها؛ حيث وصفت فى الجزء الأول من القصيدة إحدى المدن الفسطينية ببيوتها وحاناتها وشوارعها:

هكذا تخرج إلى شارع
المدينة التى هى دائما مدينتك
لترى أشياء ليست بها
ثمة تحديث
وهكذا تمر بالشارع
من أمام بيوت وحانات
من أمام وجوه وضحكات
وشحاذين عجائز[٩٩].

تتذكر ليئة جولدبرج البيوت والحانات وشارع المدينة "التى هى دائماً مدينتك" "لترى أشياء ليست بها ثمة تحديث"؛ فربما تخاطب اليهود الذين

قدمو للبلاد وتشدقوا بجعلها واحة من التقدم والحضارة ولم يفعلوا؛ "فهكذا تمر بالشارع" حيث "البيوت والحانات.. وضحكات الشحاذين" المتقدمين فى السن المعبرين عن جذرية الوجود الفلسطينى فى هذه المدينة التى تداعب وعى الشاعرة؛ لتتذكرها بكل التفاصيل والأماكن.

وفى الجزء الثانى من القصيدة تحكى الشاعرة عن "عصفورة برتقالية"؛ هى بالأحرى طفلة فلسطينية تبحث عن بيتها وسط الأطلال؛ ولكن أبت الشاعرة أن تبوح بهوية هذه الطفلة:

وفوق إحدى الهضاب

تحلق عصفورة برتقالية

لا أعرف اسمها

بل أشجار الزيتون تعرفها

والرياح تتعقبها وهى تغنى:

"هنا بيتك"

وفى عيون طفلة عربية

على مشارف القرية المحطمة

ترفرف تلك العصفورة البرتقالية

التى لا أعرف اسمها[١٠٠].

وهكذا لم تعرف الشاعرة تلك الطفلة؛ بل "تعرفها أشجار الزيتون" التى اشتهر بها الفلسطينيون على أرضهم؛ وتعرفها أيضاً الرياح التى "تتعقبها قائلة: هنا بيتك"؛ فالرياح تعرف مكان البيت وتدركه بعد أن تحطم وتهدم فى هذه الحرب وصار مثل مئات البيوت فى هذه "القرية المحطمة".

(٥) لقد أطلق الكثير من الشعراء صفات عديدة على القرى الفلسطينية التى أثقلت الذاكرة والوعى الإسرائيلى بصور الدمار والخراب؛ دون ذكر اسم لها؛ فكانت هناك "القرية المهجورة" و"القرية الميتة" و"القرية المحطمة". وهى صفات تشير إلى الوضع الذى آلت إليه القرى الفلسطينية بعد هذه النكبة التى لحقت بها وبأهلها. وعلى سبيل المثال نشر الشاعر الإسرائيلى دان باجيس الذى تغلب على قصائده أحداث النازى؛ قصيدة تحذيرية بعنوان "القرية الميتة" فى صحيفة "عل هامشمار" عام ١٩٥٥؛ وصف فيها حال إحدى القرى الفلسطينية التى حط عليها السكون والدمار؛ وهى القرية التى علقت فى وعيه وتأثر بها وأثقلت ذاكرته؛ فكتب يقول:

حال قدومك للسكون المحترق

للأحجار.. للأسوار اللبنية

للقرية الميتة؛ مقطوعة الرأس

للرماد المتناثر

للحفيف المتهتك بين الأشواك

وفوق رأسك أثقال الذاكرة

وأثقال حنق المهجرين

فجأة؛ يهبط عليك طير الكراهية

يفرش عليك جناحيه كالصليب من فوقك

وأظافره كالسكاكين الحادة

تتعقب خطاك[١٠١].

هنا يتحدث باجيس فى هذه القصيدة عن لقاء يجمع بين القاص اليهودى وبقايا قرية فلسطينية محروقة؛ وفيها يظهر المتحدث الذى جاء ليبحث عن الهدوء المحترق فيظهر الهدوء وتختفى القرية المحروقة.

وفى هذه القصيدة يحذر باجيس من غضبة الفلسطينيين المهجرين من قريتهم التى احترقت بالكامل وحط عليها السكون من كل صوب فكان "سكوناً محترقاً". وهو وصف يبين شدة الاحتراق والخراب الذى لحق بتلك القرية التى لم يذكر الشاعر اسمها أيضاً. وقد وصف الشاعر تلك القرية بـ" القرية الميتة.. مقطوعة الرأس"؛ فقد ذبحها الاحتلال وحرقها؛ و"تناثر رمادها" فى كل مكان؛ إلى درجة "تهتك الحفيف بين الأشواك"؛ وهى أوصاف لاذعة تبين لنا مدى العنف والجرائم التى ارتكبها الجيش الإسرائيلى فى حق الفلسطينيين خلال حرب ١٩٤٨.

وهكذا كان حجم الدمار الذى حط على تلك القرية الفلسطينية؛ فقد ذبحت؛ وقتلت؛ وأحرقت؛ وتناثر رمادها فى كل مكان. وليس هذا فحسب؛ بل أثقلت الذاكرة بصور الدمار والخراب؛ حتى صارت "أثقال الذاكرة" و"أثقال حنق المهاجرين" شبحاً أو كابوساً يحذر منه الشاعر القادمين إليها من اليهود. وقد وصف الشاعر هذا الكابوس أو الذاكرة المثقلة بـ"الطائر المفترس" الذى تتعقب "أظافره الحادة كالسكين" خطى القادمين إلى هذه القرية.

وعلنا نلاحظ أيضاً فى هذه القصيدة؛ أن الشاعر لم يذكر الفلسطينيين؛ فقد اهتم كعادة أغلب الشعراء الإسرائيليين بالنكبة الفلسطينية ومحو الفلسطينى نفسه.

(٦) وتحت عنوان כפר נטוש "قرية مهجورة" كتبت الشاعرة الإسرائيلية حيا فيرد عن صورة القرية الفلسطينية "المهجورة" القابعة فى الذاكرة الإسرائيلية؛ وفيها تعطى لنا انطباعاً عن الصورة النمطية للقرية العربية التى روج لها بعض الشعراء والأدباء الإسرائيليين بعد حرب ١٩٤٨؛ حيث دأب هؤلاء على إظهار العربى الفلسطينى فى صورة البدوى والقروى المتخلف الذى يسكن القرى والأكواخ والبيوت اللبنية فحسب؛ وعملوا على إظهار التحضر اليهودى فى مقابل التخلف العربى، ويبدو أن

فيرد انضمت إلى هذا الصراع الأدبى الذى فجره هؤلاء الأدباء والشعراء الإسرائيليون جنباً إلى جنب مع الصراع العسكرى؛ فكتبت تقول:

تلاشت آثار أقدام الحمير
واضمحلت ريح الروث والتبن
واكفهرت من الصدوع
أعين تؤلم الحجر.
تداخلت ألوان؛ وخيم
اللون الرمادى على القرية[١٠٢].

ولعل أول ما يلفت الانتباه فى هذه القصيدة هو عنوانها "قرية مهجورة"؛ وكلمة "مهجورة" هنا ربما تعطى انطباعاً بأن الهجر كان طواعية لا قسراً. ورغم آلام الشاعرة على ما أصاب القرية من خراب "يؤلم الحجر"؛ حيث خيم "اللون الرمادى" على جنبات القرية؛ فإن صورة الألم التى "انعكست فى الأعين" واعتصر لها قلب الشاعرة؛ تداخلت معها صورة أخرى من "آثار أقدام الحمير" و"ريح روثها وطعامها". وهى الصورة التى شاعت فى الأدب الإسرائيلى بعد حرب ١٩٤٨. ومرة أخرى يبقى الاعتراف بالنكبة الفلسطينية فى هذه القصيدة و"تلاشى" الفلسطينى نفسه. وهكذا جاءت هذه القصائد لتؤكد أن هذه المدن بجغرافيتها ما زالت تعلق بالذاكرة الإسرائيلية وتحتل وعيه بصورة واضحة رغم كل محاولات التغييب.

(٧) كما تطالعنا الشاعرة الإسرائيلية ليئة جولدبرج في أحد أجزاء قصيدتها الطويلة بعنوان "משירי ציון" "من قصائد صهيون" المكونة من أربعة أجزاء، نشرتها صحيفة "دفار" الإسرائيلية ضمن مجموعة دافار سنة ١٩٥٥، وفي المقطع الثالث منها والذي جاء بعنوان "עֲצֵי זַיִת" "أشجار الزيتون" تقول فيها:

في حرارة الصيف القائظ؛ وقفوا
سراً في العاصفة؛ جاءوا
يقفون بين المنحدر
والتل المقابل للقرية المدمرة.
خلف ضوء القمر الخافت؛ يختفون
فلتقف، أمام هذا الهدوء العظيم.
إنه الشيب الحسن!
ولتنصت، أنصت لهبوب
الرياح؛ في مشهد أشجار الزيتون
يا له من ازدهار متواضع
أتسمع؟ إنهم يقولون الآن
كلمات جوفاء بسيطة(١٠٣)

هكذا تصف جولدبرج مشاهد القرية الفلسطينية المدمرة، إنها مشاهد الدمار التى تحتل الوعى الإسرائيلى، إنها مشاهد الجغرافيا الفلسطينية التى محيت ومازالت تعلق فى الذاكرة، وتنظم فى الأشعار الإسرائيلية، وتسمع

من بين أفواه الفلسطينيين الذين يذهبون فى جوف الليل و "خلف ضوء القمر" وفى "حرارة الصيف القائظ" إلى بيوتاتهم وقراهم التى دمرها الاحتلال وهجر أهلها.

(٨) ويحكى الشاعر الإسرائيلي "حاييم جوري" فى قصيدته שיר סוף הקיץ "أنشودة نهاية الصيف"، التي نشرتها مجلة "أورلوجين" الإسرائيلية في العدد (٤)، نوفمبر ١٩٥١، قصة قرية دمرت وأحجار تفتت؛ على لسان أحد الأثرياء العرب الذى يصف الجغرافيا المادية التى طمستها الحرب ولكنها قابعة فى الجغرافيا العقلية والذاكرة والتاريخ؛ حيث يقول:

في مساء وردي حكى ثري رمادي؛ لحجر صلد
أمر المحطة الأخيرة، والرياح المحملة من البحر
بالملوحة الحزينة. قليلاً من ذكريات مدينتي
كان الجو بارداً؛
والشتاء مقبلاً نحونا؛ ومن فوقنا السحب
ومن خلفنا قصور الصيف والأيام البيضاء؛
ثمرة ذابلة تسقط على أرض طينية
والغابات تصاحب كل القوافل نحو بوابات خريفها.
كان الصيف حاراً، ابن شتاء فقير بخيل
والزرع حزين قبل حصاده، وجفت الآبار في أنحاءه

. . .

يخلف سخطاً واهانات في أعقابه .
وهذا البلد المنقوش فقره على وجهه
ككسرة خبز وحيدة؛ خبز أسى لبؤسها
ويل لمن أمل في انشودة الغلال والحبوب
ودموعه تغلي مثل البخار الذي يأتي من الصحراء .
رأيت أشواك البساتين قد علت وكأنها منظر طبيعي لأشجار الزيتون
ونوافذ فارغة وحجر مفتت، إنها قرية موتى
إذ نزح أهلها الى الشرق وقت الحرب؛
وأرض مهجورة وكأنها تثأر، وهذا ثأر الأرض
لقد كف الناس من حولها أيديهم عنها؛
وهي تسقط نحو الخراب، مثل هاوية لا نهاية لها[١٠٤] .

وهكذا يصف الشاعر صمت المدن وكآبة المنظر على لسان أحد الفلسطينيين ممن هالهم ما حدث فأخذ يحكى للحجر عن أيامه الأخيرة فى قريته التى دمرت، ومن بعدها حملت الأمواج "ملوحة البحر الحزينة" ؛ و"ذبلت أوراق الشجر" بعد أن "نزح أهلها إلى الشرق وقت الحرب" . وفى حقيقة الأمر إنها قصة يحكيها الشاعر بنفسه، يتقمص فيها شخصاً فلسطينياً حزيناً سقطت "قريته نحو الخراب" ؛ دون أن ينقذها أحد من حولها شأنها مثل سائر القرى والمدن التى سقطت فى مسلسل التدمير والتغييب .

وهذا ما أكده الإسرائيلي جرشون ريفيلين في كتابه "دافيد بن جوريون يوميات الحرب ١٩٤٧ـ١٩٤٨" الذي يقول فيه "أدت تلك الأعمال التي قام بها الجيش الإسرائيلي تجاه المدن والقرى الفلسطينية في حرب ١٩٤٨ وما تلاها إلى تدمير وتفريغ خمس مدن فلسطينية ومحوها وتغييبها بالكامل، وهي مدن طبرية وصفد وبيسان وبئر السبع والمجدل (عسقلان)، إضافة إلى تدمير وطمس وتغييب خمس مدن أخرى بشكل شبه كامل، وهي يافا وحيفا وعكا واللد والرملة، بالإضافة إلى ذلك تدمير ومحو كل الأحياء العربية في مدينة القدس الغربية، والتي احتلتها إسرائيل خلال حرب ١٩٤٨، وهي أحياء الطالبية والقطمون والبقعة الفوقا والبقعة التحتا[١٠٥].

إن مثل تلك الصور والأفعال نجدها مؤكدة في شهادة لإحدى الناجيات الفلسطينيات، والتي وردت في المجموعة الشعرية "لا تخبروا في جت"، وهي "سهام فلاح" التي ولدت في مدينة حطين الفلسطينية سنة ١٩٣٩، بقولها: "بعد أن سقطت قرية شلوبيا شعرنا في حطين بالخطر، وقرر الناس الخروج، بعد أن قتل الكثير من شباب حطين في المعركة، التي احتل فيها الجيش الإسرائيلي المدينة، إننى ما زلت أتذكر مشهد جثث القتلى وهم محمولين على الأكتاف، فى طريقهم للدفن فى مقبرة النبي شعيب. هكذا تركنا القرية في موسم الحصاد، بينما كانت الحنطة لا تزال في سنابلها، ولم يتم حصادها؛ بسبب الخوف والهلع الشديد الذي عم الناس؛ بعدما سمعنا

عمّا وقع في قرية دير ياسين، وما فعلوه بالنساء والفتيات هناك، من قتل وهتك للأعراض. ومن أجل ذلك قررنا الخروج؛ للحفاظ على أنفسنا وشرفنا وعوائلنا، ودخل الجيش الإسرائيلي إلى حطين بعد أن خرج الناس منها"[١٠٦].

إنّ مبدأ الاستيطان الإحلالي قام بالأساس على مبدأ الطرد لكل السكان العرب الفلسطينيين؛ من أجل فسح المجال أمام اليهود المهاجرين الجدد للحلول في مكانهم، بعد تدمير قراهم ومدنهم ومن ثم إعادة بناء المستوطنات اليهودية على أنقاضها، وقد أكد الشهود الفلسطينيون الناجون من تلك الأهوال في شهاداتهم التي وردت ضمن هذه المجموعة الشعرية "لا تخبروا في جت" على ذلك، ومنها يروي الفلسطيني "عبد الله زقوت" المولود في مدينة أشدود سنة ١٩٢٨، وعاش في مدينة اللد قوله "وصل الجيش الإسرائيلي إلى مدينتنا وشيد معتقلاً، وبدأ الجيش باعتقالات عشوائية، والبحث عن الطائرات التي سقطت خلال المعارك، وفي اليوم التالي أمرونا أن نخرج إلى الميدان، ولم نكن نتخيل إنّهم سوف يعتقلوننا، ولكنهم قاموا فعلاً باعتقال كل الشباب فوق سن السبع عشرة سنة؛ وذهبوا بنا بالقوة إلى المعتقل، وتم طرد كل السكان الباقين إلى مدينة المجدل، وكان الذي يمتنع عن ترك بيته يتم هدمه عليه وعلى أفراد عائلته.. وكنت من ضمن الرافضين لمبدأ الطرد. اعتقدنا أن يكون هناك سلاماً، ويعود المطرودين إلى قراهم ونعيش فيها بسلام، ولكنهم لم يسمحوا لنا بأي شيء؛

حتى التعليم أو العمل كان ممنوعاً علينا، وكنت أرغب في البقاء في مدينة المجدل، ولكنهم طردونا أيضاً منها إلى عكا في أبريل من العام ١٩٥٠ . . وخلال حرب ١٩٤٨ لم يشترك غالبية الفلسطينيين في المعارك، والذي كان يقاتل فقط هو الجيش المصري، وكانت القيادة المصرية في مدينة المجدل، وكان هناك معنا في المعتقل مقاتلون مصريون تم أسرهم "[١٠٧].

(٩) وفى تعبير عن الغبطة والفرح من تحول الجغرافيا الفلسطينية إلى إسرائيلية يطالعنا الشاعر الإسرائيلى شموئيل شيتل بقصيدة נעל בצל הצבר "حذاء في ظل الصبار" نشرتها صحيفة "هآرتس" في ١٩٥٦/٨/٣١، ورغم هذه الفرحة لم يستطع الشاعر طمس المعالم الفلسطينية كاملة، مما يؤكد على أن احتلال الوعى الإسرائيلى من قبل صنيعهم لم يفارق مخيلتهم مهما كتبوا ومهما حاولوا، حيث يقول الشاعر:

أشجار السرو على حدود الصحراء، والمرتفعات، تنتشر؛ تتباهى بلونها الأزرق
ها هو طريق معبد– وأسلاك الكهرباء.
والسُحُب تنتشر، وتحمل معها المدينة
وتحمل خيام نسل إسماعيل المعلقة بحبال المشانق[١٠٨].

هكذا يفتتح الشاعر قصيدته في التعبير عن مدى غبطته وفرحه بما يرى من انتشار أشجار السرو وترامیها، والتي غطت وجه الصحراء، التي كانت في السابق أرض جرداء وصحراء قاحلة لا حياة فيها، وقد تم ربط المدن ببعضها بالشوارع المعبدة؛ وتجملت بانتشار أسلال الكهرباء على طولها؛

وكيف تحولت إلى مدنيّة حديثة، بعد أن كانت تكسوها "خيام بني اسماعيل" المتناثرة على وجه الصحراء، في إشارة للعرب الذين ينظر إليهم عادة فى الأدب العبرى على أنهم متخلفون وأهل بداوة ورعاة غنم، وهي مربوطة بحبال أشبه ما تكون بحبال المشانق التي تحيط بأصحابها، وتمنعهم من التحول إلى الحياة المدنية والحضارة والتقدم. ويستمر شيتل فى القول:

قبل أن يعبد هذا الطريق، مر من هنا عابر سبيل
قبل دخول جرافة بين البحر والصحراء؛
ألقى حذاءه ووقع تحت ظل الصبار
فقد تورمت قدمه المتشققة
تلاشى ذلك العصر؛ ودُفعت دواسة البنزين إلى الأمام؛
لتلاحق ضرورات الغد؛ وتخطو كأنها عربة حديدية.
فقد كان الماضى صحراء، وبداوة ونباتات برية
وحذاء[١٠٩].

يصف شيتل في هذه الأبيات الأرض العربية قبل مجيء اليهود إليها بالتخلف والبداوة وقد تحولت إلى المدنيّة والتحضّر والجرافات العملاقة والطرق المعبدة، كانت مجرد بحر وصحراء يُغطي وجهها الرمال. وإنّ هذه الارض مر بها "عابر سبيل" ذلك البدوي المتجول، وألقى بحذاءه ليستظل تحت بشجرة الصبار بعد أن تورمت قدماه وتشققت من كثرة التجوال والترحال في أرض الصحراء؛ ثم ما لبث أن تلاشى زمنه واندثر؛ بفعل

المدنيّة والحضارة التي جاءت إلى أرضه مع دواسة البنزين، التي أدخلها اليهود معهم إلى فلسطين.

ويواصل الشاعر التهكم على تلك الأرض العربية وسكانها؛ وإن كان يعترف بعروبتها، فإنه يتشدق بإصلاحها وتحويلها إلى المدنية والحضارة، بعد أن كانت قاحلة جرداء يطوقها البدو بحميرهم. لقد تعاقب عليها الصليبيون والبيزنطيون وغيرهم -كما يقول الشاعر- ولم يستطع التعامل معها إلا اليهود:

ورفيقة هربت سيراً مع زوجها؛
للصعود على مذابح البلاد!
فاتبع آثارهم الصليبيون، والبيزنطيون، وتجار الليل.
حذاء فتى حزين، مر هنا،
سار حافياً، فر وهرب.
في الغد
سينقب عالم الآثار ويكتشف الأسرار
من رباط الحذاء وحتى زر الثياب داخل تشققات الجلد
سيبدأ بتلاوة الترانيم على حذاء لم يجد الراحة أبداً
إنها أرجل كنعانية من أرض الأغيار
إنه الفتي إسماعيل فوق أكتاف هاجر[١١٠].

هكذا يؤكد الشاعر في هذه الأبيات على نظرة الاستعلاء اليهودية، التي ينظر بها اليهود نحو "الأغيار" الذى ولى زمنهم. أما الآن فقد بدأت

تلاوة الترانيم على تلك "الأحذية والأرجل"، التي لم تعرف الراحة أبداً؛ من عيشهاً في أجواء الصحراء وحياة الترحال. إن هذا الماضى الذى ولى واندثرسينقّب عنه علماء الآثار اليهود ويكتشفون أسراره وارتباطه بالفتى اسماعيل الذي اعتلى أكتاف هاجر.

إنها النظرة نفسها التى تشدق الشعراء الإسرائيليون، ممن يمجدون الدور اليهودي على هذه الأرض، ويفخرون بأنّهم هم من عمر البلاد وشق الطرق وأوصل الكهرباء إلى أرض لم تعرف المدنيّة والحضارة من قبل، ولا يقرون بوجد العرب وأحقيّتهم بهذه البلاد التي عاشوا عليها وتوارثوها، ثم إنّه يؤكّد على نظرة الإستعلاء اليهودية على غيرهم من الأجناس، هذه النظرة التي ولّدت عندهم الحق على هذه الأرض، كونهم هم من جلب المدنيّة والحضارة الغربية إليها، والتي لم تكن في نظرهم إلا مجرد صحراء قاحلة لا حياة عليها.

نتائج الدراسة

كانت النكبة الفلسطينية، رغم محاولات تغييبها، حاضرة وبقوة فى الكثير من القصائد التى احتوتها هذه المجموعة الشعرية؛ التى جمعت أغلب ما كتب تقريباً عن النكبة فى مجال الشعر العبرى حتى عام ١٩٥٨ . ومما سبق نستطيع أن نستخلص النتائج التالية :

(١) تصدر هذه المجموعة الشعرية بعد ستين عاما تقريباً من النكبة الفلسطينية؛ لتمثل تحدياً كبيراً لمحاولات تغييب النكبة ومحوها من الذاكرة الإسرائيلية؛ عبر القوانين الإسرائيلية .

(٢) لم تكن أهمية هذه المجموعة الشعرية فى احتلال النكبة الفلسطينية للوعى الإسرائيلى فحسب؛ بل تكمن أهميتها أيضاً فى التعريف بالجذور وظروف نشأة دولة إسرائيل . ففيها تعديل لمسار التاريخ المختلق من قبل المؤسسة الرسمية الإسرائيلية؛ وفيها يحلق الماضى الفلسطينى المرير بجناحيه فى سماء المجتمع الإسرائيلى؛ الذى نشأ وقام على أطلال قرى ومدن فلسطينية ما زالت تقبع فى ذاكرة المحتل رغم محاولات الطمس والتغييب المستمرة .

(٣) يمكن القول؛ إن الشعر العبرى الذى كتب بعد النكبة الفلسطينية؛ وكرافد من روافد الأدب العبرى الإسرائيلى؛ سار على نفس النهج الذى سلكه الأدباء الإسرائيليون فى محاولات إظهار العداء الإسرائيلى

للعربى الفلسطينى من خلال شيوع الصورة النمطية المشوهة للقرى الفلسطينية فى أغلب القصائد العبرية التى تحدثت عن النكبة الفلسطينية .

(٤) رغم أن هذه القصائد تتحدث عن النكبة الفلسطينية وما لحق بالقرى والمدن الفلسطينية ؛ ومع التفاصيل الدقيقة التى ذكرها هؤلاء الشعراء عن تلك الأماكن ؛ فإنها تؤكد أن هذه المدن ما زالت تعلق بالذاكرة الإسرائيلية وتحتل وعيه بصورة واضحة ؛ رغم كل محاولات التغييب التى اتبعوها فى عدم ذكر اسماء القرى والمدن ؛ أو ذكرهم للأسماء العبرية فحسب .

(٥) كان تدمير القرى الفلسطينية ونهبها خلال أحداث النكبة ؛ ومحو مئات السنوات من تاريخها من العناصر المركزية في القصيدة والذاكرة الجماعية للشعراء الإسرائيليين ؛ علاوة على أن أحداث النكبة ارتبطت بمشاعر الفقدان والظلم الناجم عن قيام دولة إسرائيل وممارساتها لدى بعض الشعراء .

(٦) علق بعض النقاد الإسرائيليين على هذه المجموعة الشعرية بقولهم ؛ إن الاعتراف بالنكبة الفلسطينية أمر ضرورى للراغبين فى التسوية السلمية وحل الصراع ؛ وإن مواجهة أحداث الماضي والاعتراف الحقيقى بالثمن الباهظ الذي سدده الفلسطينيون خلال النكبة من شأنه

أن يمهد الطريق أمام تلك التسوية؛ وهو ما بدا فى التعاطف الإنسانى فى بعض القصائد. ولكننا نرى ـ ومن خلال تلك الدراسة ـ أن حرص الشعراء الإسرائيليين على عدم الاعتراف بالمسئولية وتجنب ذكر الفاعل الذى تسبب فى هذه النكبة؛ يحول دون ذلك.

(٧) تعامل الشعراء الإسرائيليون مع الجرائم الأخلاقية التى اقترفت فى حق الفلسطينيين خلال النكبة كأعمال فردية أثرت بالسلب على العمل الجماعى؛ وبدا الشعراء وكأنهم ينتحبون الجرم الأخلاقى الفردى، كالاغتصاب والقتل والتهجير والطرد؛ فى معزل عن الاعتراف بالجرم السياسى الجماعى، الذى هدف إلى تفريغ المدن الفلسطينية وطمس معالمها العربية.

(٨) كانت الرؤية الصهيونية الرافضة الاعتراف بالخطيئة فى حق الفلسطينيين حاضرة بقوة فى بعض قصائد هذه المجموعة الشعرية؛ حيث تماثل الشعراء مع الجرح الفلسطينى النابع من جرح قديم لدى الشاعر وهو (الحدث النازى)؛ وهو ما بدا فى التعاطف الإنسانى فى بعض القصائد لهذه المجموعة الشعرية.

(٩) تأتى الشهادات الفلسطينية ضمن صفحات هذه المجموعة الشعرية؛ لتفضح الشعر القابع فى أسر لغة الكلام والرمز، وللتأكيد على أنه إذا لم ينجح الشعر العبرى فى التعبير بصفة عامة عن واقع النكبة

الفلسطينية بكل مآسيها؛ فإن الكثير من شهادات المطرودين الفلسطينيين وأبناءهم تستطيع أن تعبر عنها بكل قوة. كما أنها قد تكون محاولة للتعبير عن واقع النكبة الفلسطينية وتداعياتها بصورة مباشرة بعيداً عن لغة الشعر البلاغية غير المباشرة.

(١٠) كانت القرى والمدن الفلسطينية بأسماءها العبرية وعبقها التاريخى العربى هى البطل الرئيس فى هذه المجموعة الشعرية؛ رغم محاولات تغييبها. فالجغرافيا الفلسطينية حاضرة وبقوة فى الكثير من هذه القصائد.

الهوامش

هوامش الفصل الأول:

(١) د. جمال أحمد الرفاعى: تطور صورة العربي في الأدب الإسرائيلي، صحيفة الأهرام، ١٠/ ١٠/ ١٩٩٧، (ص٤).

(٢) د. محمود سعيد عبدالظاهر: النشاط العسكرى اليهودى فى فلسطين من قرار التقسيم إلى إعلان الدولة، رسالة المشرق، مركز الدراسات الشرقية- جامعة القاهرة، المجلد السابع، العدد ١: ٤، ١٩٩٨، (ص ٤٢١).

(٣) אריאל הירשפלד: כמעט כל מה שנשאר על הנכבה בתחום השירה העברית נמצא בכתב העת "סדק", עיתון הארץ, 10.1.2010.

(٤) חנן חבר: אל תגידו בגת, הנכבה הפלסטינית בשירה העברית 1948-1958, אסופת שירים, הוצאת משותפת של זוכרות, סדק, פרדס, ופרהסיה, 2010, ע"מ 198-199.

(٥) ארז שוייצר: דברים שבשירה, השאלה הנוקבת, עיתון הארץ, 20.4.2010.

(٦) د. سعيد عبدالسلام: مفاهيم عنصرية فى الأدب العبرى الحديث، كلية الآداب – جامعة عين شمس، القاهرة، ١٩٩٨، (ص ب).

(٧) אלי הירש: קורא שירה، אל תגידו בגת، הנכבה הפלסטינית בשירה העברית، ידיעות אחרונות، 22□1□2010.

(٨) שם.

(٩) עמיחי שלו: די לטשטש، עיתון ידיעות אחרונות، 29□1□2010.

(١٠) שם.

(١١) שם.

(١٢) אמיר בנבגי: בתוך ביצורי הזיכרון،

http://www.haokets.org/□□□□/□□/□□

(١٣) שם.

(١٤) أنظر: دعاء محمد الديب، أزمة الهوية فى رواية السيرة الذاتية، دراسة فى رواية(هذا الذى فى مواجهتنا) للأديبة الإسرائيلية، رونيت متالون، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب –جامعة المنوفية، ٢٠٠٥.

(١٥) אמיר בנבגי: בתוך ביצורי הזיכרון،

http://www.haokets.org/□□□□/□□/□□

(١٦) هذا القانون الذى قدمه عضو الكنيست «أليكس ميلر» عن حزب «إسرائيل بيتنا» يخوّل وزير المالية الإسرائيلي صلاحية اتخاذ اجراءات قضائية وفرض

عقوبات مالية على هيئات تمولها الحكومة مثل: جمعيات أو منظمات أو سلطات محلية في حال قيامها بإحياء ذكرى «النكبة الفلسطينية»، وعلى كل من ينفي وجود «إسرائيل» دولةٌ يهودية وديموقراطية.

(١٧) מיכאל יעקובסון: סיבוב במיסכה،

http://michaelarch.wordpress.com/□□□□/□□/□□

(١٨) אלי הירש: קורא שירה، שם.

(١٩) פרופ אליעזר שביד: זהות יהודית ציונית، מאזניים، גליון 6، אפריל، 1997. (עמ" 33).

(٢٠) د. محمد محمود أبو غدير، العقل الإسرائيلي بين الخصوصية والعالمية، رسالة المشرق، مركز الدراسات الشرقية- جامعة القاهرة، المجلد السابع، العدد ١: ٤، ١٩٩٨، (ص ٥٧).

(٢١) אריאל הירשפלד: כמעט כל מה שנשאר על הנכבה בתחום השירה העברית נמצא בכתב העת "סדק"، עיתון הארץ، 10□1□2010.

(٢٢) נא לעיין: נגה קדמן: בצדי הדרך ובשולי התודעה، דחיקת הכפרים הערביים שהתרוקנו ב-1948 מהשיח הישראלי /

http://www.text.org.il/index.php?book=٠٨١٠٠٨١

(٢٣) דניאל בן נחום: כפר נטוש, אל תגידו בגת, הנכבה הפלסטינית בשירה העברית 1948 – 1958، אסופת שירים، עורך: חנן חבר، הוצאה משותפת של זוכרות، סדק، פרדס، ופרהסיה، 2010، (עמ، 83).

(٢٤) נאלעיין: ١١/ ١/ ٢٠١٤

http://go.Microsoft.Com/fwlink/?Linkid=١٢١٣١٥.

(٢٥) חנן חבר: אל תגידו בגת، הנכבה הפלסטינית בשירה העברי 1948– 1958، שם، (עמ، 9).

(٢٦) שם، (עמ، 25).

(٢٧) יחיאל מר: שרידים מול הים، אל תגידו בגת، שם، (עמ، 91).

(٢٨) נגה קדמן: בצדי הדרך ובשולי התודעה، שם.

(٢٩) אבא קובנר: מראה חולות، אל תגידו בגת، שם، (עמ، 71).

(٣٠) חיים גורי: בנוף הכפרים הנטושים، אל תגידו בגת، שם، (עמ، 100).

(٣١) נגה קדמן: בצדי הדרך ובשולי התודעה، שם.

(٣٢) שם.

(٣٣) آلة موسيقية ورد ذكرها فى سفر المزامير.

(٣٤) אפרים תלמי: בשדות אשקלון, אל תגידו בגת, שם، (עמ، 173).

(٣٥) נגה קדמן: בצדי הדרך ובשולי התודעה، שם.

(٣٦) חנן חבר: אל תגידו בגת، שם، (עמ، 26).

(٣٧) אבותמאם: אדמבחתאמאמר، אלתגידובגת، שם، (ע"מ 132).

(٣٨) חנן חבר: אל תגידו בגת، שם، ע"מ 181□180.

(٣٩) צפרירהגרבר: ערימוגבעות، אלתגידובגת، שם، (ע"מ 79).

(٤٠) שם، (ע"מ 79).

(٤١) אפרים תלמי: פינה בצפת، אל תגידו בגת، שם، (ע"מ 140).

(٤٢) راحيل: هي إحدى أربع أمهات مشهورات في اليهودية، ويطلق عليها حين ورود سيرتها في الحديث "أمنا راحيل"، وهى زوجة يعقوب النبي (عليه السلام) التي كانت تحظى بحبّه الشديد. وهي أمّ يوسف وبنيامين (عليهما السلام) ولداها من يعقوب. وترد سيرتها في أسفار العهد القديم في الأسفار (٢٩ـ٣٥). وجدير بالذكر أن يعقوب النبي قد تزوج بالإضافة إلى راحيل بثلاث زوجات أخريات هُن: ليئة (ليا) وأنجب منها العدد الأكبر من أولاده

وهم: رأوبين وشمعون وليفي ويهودا وزفولون ويساكر وأبنة واحدة هي دينا. وتزوج من جاريتها زلفى (زلفا) وأنجب منها ولدين هما: جاد وأشير. وتزوج من جارية راحيل بلهة (بلها) وأنجب منها ولدين هما: دان ونفتالي. وبذلك يكون ليعقوب عليه السلام اثنا عشر ولداً وبنتاً واحدة. للمزيد ينظر (الإمام، د. سامي: الفكر العقدي اليهودي-أهم أُسس الديانة اليهودية وعناصرها ومقدساتها، جامعة الأزهر، كلية اللغات والترجمة، ٢٠١٠، ص٤١-٤٢).

(٤٣) אלכסנדר פן: שירי עם, כפר שדוד, אל תגידו בגת, שם, (ע"מ 206-208).

(٤٤) מרדכי אבי-שאול: שירהעצמאות, אל תגידו בגת, שם(ע"מ 102).

(٤٥) שם

(٤٦) שם

(٤٧) שם، (ע"מ 110).

(٤٨) שם

(٤٩) שם

(٢) ش. شالوم: شاعر عبري ولد في غاليسيا سنة ١٩٠٥ لأسرة متدينة، هاجر إلى فلسطين سنة ١٩٢٢، وعمل في تدريس الادب العبري الحديث، ثم صار رئيس رابطة الأدباء العبريين. حصل على جائزة تشنخوفسكي وجائزة بياليق سنة ١٩٤١، ثم عمل محرراً للمجموعة الأدبية "قوموليت" التي تصدر في حيفا. له الكثير من القصائد والأعمال الادبية. للمزيد ينظر (שאנן: אברהם:

מלון הספרות החדשה העברית והכללית، הוצאת תל אביב، 1978، (עמ 839).

(٥١)ש. שלום: יומחדש، אלתגידובגת، שם (ע"מ 67-60).

(٥٢) שם

(٥٣) שם

(٥٤) שם

(٥٥) שם

(٥٦)צפרירהגרבר: ערימוגבעות، אלתגידובגת، שם، (ע"מ 79).

(٥٧) دافيد أفيدان "דוודאבידן": شاعر وناشر يهودي، وأحد أبرز الشعراء الإسرائيليين في العصر الحديث، ولد سنة ١٩٣٤ في تل أبيب، ومات فيها

سنة ١٩٩٥، عمل استاذاً في جامعة تل-أبيب، لديه ما يقرب من ٢٠ ديوان شعري، ورئيس دارين للنشر، تُرجمت الكثير من أعماله إلى اللغة الإنكليزية، وحصل على الكثير من الجوائز عن أعماله الشعرية والترجمة.

(٥٨) אבידן، דווד: שירי מלחמה ומחאה، הוצאת הקיבוץ המאוחד، 1987، ע"מ 62.

(٥٩) גלבוע، אמיר: לפעמים אתה מרים פטיש، שבערשיות، הוצאת ספרית פועלים، תל-אביב، 1984 ע"מ 154.

هوامش الفصل الثانى:

(٦٠) أنظر: د. محمد جلاء إدريس، فلسفة الحرب في الفكر الديني الإسرائيلي، مركز الدراسات الشرقية ـ جامعة القاهرة، العدد ١٨، ٢٠٠١.

(٦١) אל תגידו בגת، שם، (עמ، 138).

(٦٢) נתן אלתרמן: על זאת، אל תגידו בגת، שם، (עמ، 68).

(٦٣) חנן חבר: אל תגידו בגת، שם، (עמ، 9).

(٦٤) אמיר בנבגי: בתוך ביצורי הזיכרון، שם.

(٦٥) חנן חבר: אל תגידו בגת، שם، (עמ، 10).

(٦٦) שם، (עמ، 14-15).

(٦٧) אלי הירש: קורא שירה، שם.

(٦٨) ארז שוייצר: דברים שבשירה، שם

(٦٩) אריה ל. שטראוס: יד פאטמה، אל תגידו בגת، שם، (עמ، 126).

(٧٠) אמיר בנבגי: בתוך ביצורי הזיכרון، שם.

(٧١) שם.

(٧٢) אלכסנדר פן: השאלה הנוקבת، אל תגידו בגת، שם، (עמ، 122).

(٧٣) مذبحة دير ياسين: حدثت مذبحة دير ياسين في قرية دير ياسين، التي تقع غربي القدس في ٩ أبريل عام ١٩٤٨ على يد الجماعتين الصهيونيتين: أرجون وشتيرن. أي بعد أسبوعين من توقيع معاهدة سلام طلبها رؤساء المستوطنات اليهودية المجاورة ووافق عليها أهالي قرية دير ياسين. وراح ضحية هذه المذبحة أعداد كبيرة من السكان لهذه القرية من الأطفال، وكبار السن والنساء والشباب. وكان عدد من ذهب ضحية هذه المذبحة حسب المصادر العربية والفلسطينية ما بين ٢٥٠ إلى ٣٦٠ ضحية تم قتلها. وكانت مذبحة دير ياسين عاملاً مهمّاً في الهجرة الفلسطينية إلى مناطق أُخرى من فلسطين والبلدان العربية المجاورة لما سببته المذبحة من حالة رعب عند المدنيين. ولعلّها كانت السبب في إشعال الحرب العربية الإسرائيلية في عام ١٩٤٨. وأضفت المذبحة حقداً إضافياً على الحقد الموجود أصلاً بين العرب والإسرائيليين.

(٧٤) ש. טוביה: מזמורים, אלתגידובגת, שם، (ע"מ 56-57).

(٧٥)אדמר.: אורותלשלום، אורותלחיים، אלתגידובגת، שם (ע"מ 117-121).

(٧٦) שם

(٧٧) שם

(٧٨) שם

(٧٩) שם

(٨٠) שם

(٨١) שמואל שתל: בדרכי נכר، אל תגידו בגת، שם، (ע"מ 197).

(٨٢) חנן חבר: אל תגידו בגת، שם، ע"מ 109.

(٨٣) שם ע"מ 138-139.

(٨٤)נתן אלתרמן: מהומות נצרת،אל תגידו בגת، שם (ע"מ 200-203).

(٨٥) שם

(٨٦) שם

(٨٧) عادا أهروني "עדה אהרוני": ولدت في القاهرة (١٩٣٣ـ) وهاجرت الى فلسطين سنة ١٩٥٠، درست الأدب الانجليزي والامريكي وعلم الاجتماع في جامعة لندن والجامعة العبرية بالقدس. أسست مجلة "جليم" وكانت رئيسة تحريرها من ١٩٥٨ـ٢٠٠٥، وتعمل أيضاً نائب رئيس رابطة الكتاب الإسرائيليين ورئيسة المنتدى الدولي للثقافة والأدب. من أهم

أعمالها هي: "من الاهرامات الى الكرمل" ١٩٧٨، و"خروج مصر الثاني" ١٩٨٥، و"ذكريات من الاسكندرية" ١٩٩١، و"قصائد سلام" ١٩٩٧، و"نساء يضعن عالم بلا حرب وعنف" ٢٠٠٢، وكذلك "الخروج من مصر: اكليل من القمح". للمزيد أنظر (د. محمد فوزي ضيف: الحرب والسلام في الشعر الإسرائيلي– مفهوم السلام في شعر عادا أهاروني، جامعة المنيا، كلية الدراسات العربية، مطبعة النيل، القاهرة، ١٩٩٤، ص٩ـ١٢).

(٨٨)אתר האינטרנט של המשוררת עדה אהרוני:

http://www.iflac.com/ada/heb/booksheb.files/shir_Levanon.htm-٢٨/١١/٢٠١٢.

(٨٩)חנן חבר: אל תגידו בגת, שם, ע"מ 138–139.

هوامش الفصل الثالث:

(٩٠) עמיחי שלו: די לטשטש, שם.

(٩١) נגה קדמן: בצדי הדרך ובשולי התודעה, שם.

(٩٢) נעמי נדב: יפו, אל תגידו בגת, שם, (עמ، 104).

(٩٣) חיה ורד: אשקלון, אל תגידו בגת, שם، (עמ، 76).

(٩٤) שם، (עמ، 76ـ 77).

(٩٥) שם، (עמ، 77).

(٩٦) שם، (עמ، 78).

(٩٧) אבא קובנר: פרידה מהדרום، אל תגידו בגת، שם، (עמ، 70).

(٩٨) שם.

(٩٩) לאה גולדברג: illumination، אל תגידו בגת، שם، (עמ، 182).

(١٠٠) שם، (עמ، 182).

(١٠١) דן פגיס: הכפר המת، אל תגידו בגת، שם، (עמ، 157).

(١٠٢) חיה ורד: כפר נטוש، אל תגידו בגת، שם، (עמ، 174).

(١٠٣) לאה גולדברג: משירי ציון، אל תגידו בגת، שם (ע"מ 183).

(١٠٤) חיים גורי: שיר סוף הקיץ، אל תגידו בגת، שם، (ע"מ 106-108).

(١٠٥) ريفيلين، جيرشون، والحنان أورن: دافيد بن جوريون – يوميات الحرب ١٩٤٧-١٩٤٨، ترجمة سمير جبور، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، لبنان، ١٩٩٣، ص٤٥٤.

(١٠٦) חנן חבר: אל תגידו בגת، שם، ע"מ 92-93.

(١٠٧) חנן חבר: אל תגידו בגת، שם، ע"מ 158-159.

(١٠٨) שמואל שתל: נעל בצל הצבר، אל תגידו בגת، שם، (ע"מ 179).

(١٠٩) שם

(١١٠) שם